THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190619

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٨٩٢٧٤٤٥ Accession No. ١٨١٢٠

Author ٤٠ ل ش

شيخو، لويس اليسوعي 18120

Title ١٨٩٤

علم الأدب: دفاعات لمشاهير الأدباء

This book should be returned on or before the date last marked below.

كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الاول

من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

حق الطبع محفوظ للمطبعة

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
ببيروت سنة ١٨٨٧
برخصة معارف ولاية بيروت الحمية ١ ٥٨

مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامه واركانه

المبحث الاوّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلْمُ ٱلْاَدَبِ عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنْ جَمِيعِ اَنْوَاعِ ٱلْخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ لَفْظًا وَكِتَابَةً. وَذٰلِكَ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلْمُخَاطَبِ وَٱلْمُحَاوَرَاتِ فِي اِفَادَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِفَادَتِهَا لَمَّا لَمْ تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ اِلَّا بِٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْكِتَابَةِ وَاَحْوَالِهِمَا كَانَ ضَبْطُ اَحْوَالِهِمَا مِمَّا اُعْتُنِيَ بِهِ ٱلْعُلَمَاءُ. فَٱسْتَخْرَجُوا مِنْ اَحْوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوْهَا بِٱلْعُلُومِ ٱلْاَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ اَدَبِ ٱلدَّرْسِ عَلَيْهَا بِٱلذَّاتِ وَاَدَبِ ٱلنَّفْسِ بِٱلْوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنْهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْاَدَبُ نَوْعَانِ نَفْسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . فَالنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ اللهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الْاَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ الطِّبَاعِ . وَالْكَسْبِيُّ مَا اسْتَفَادَتْهُ الْاَنْفُسُ مِنْ مَحَاسِنِ الْاَقْوَالِ الْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ الْقُلُوبِ وَالْاَسْمَاعِ وَهُوَ الَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي النُّفُوسِ اَحْسَنَ مَوْقِعٍ اِتْرُمْقُهُ لِاَجْلِهِ الْعُيُونُ بِالْاِجْلَالِ وَتَتَحَمَّلَ النُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا اِلَيْهِ بِتَتَابُعِ الْاِدْلَالِ

وَاَمَّا تَقْسِيمُ الْاَدَبِ الْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ اَنُ الْاَنْبَارِيِّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ الْعَلَّامَةُ الْجُرْجَانِيُّ اِلَى اثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا قَالَ : لِعِلْمِ الْاَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ . اَمَّا الْاُصُولُ فَالْبَحْثُ فِيهَا : (١) اِمَّا (عَنِ الْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ اللُّغَةِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ الصَّرْفِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ انْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِالْاَصَالَةِ وَالْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ الْاِشْتِقَاقِ . (٢) وَاِمَّا (عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْاِطْلَاقِ) . فَاِمَّا بِاعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا التَّرْكِيبِيَّةِ وَتَاَدِّيَتِهَا لِمَعَانِيهَا الْاَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ النَّحْوِ . وَاِمَّا بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِاَصْلِ الْمَعْنَى فَعِلْمُ الْمَعَانِي . وَاِمَّا بِاعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ الْاِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ الْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلْبَيَانِ. وَعِلْمُ ٱلْبَدِيعِ ذَيْلٌ لِعِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلٌ تَحْتَهُمَا. (٣) وَأَمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ ٱلْمَوْزُونَةِ). فَإِمَّا مِنْ حَيْثُ وَزْنُهَا فَعِلْمُ ٱلْعَرُوضِ أَوْ مِنْ حَيْثُ أَوَاخِرُهَا فَعِلْمُ ٱلْقَوَافِي

وَأَمَّا ٱلْفُرُوعُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِنُقُوشِ ٱلْكِتَابَةِ فَعِلْمُ ٱلْخَطِّ أَوْ يَخْتَصُّ بِٱلْمَنْظُومِ فَٱلْعِلْمُ ٱلْمُسَمَّى بِقَرْضِ ٱلشِّعْرِ. أَوْ بِٱلنَّثْرِ فَعِلْمُ ٱلْإِنْشَاءِ. أَوْ لَا يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ فَعِلْمُ ٱلْمُحَاضَرَاتِ وَمِنْهُ ٱلتَّوَارِيخُ

المبحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانه

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يَنْظُرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا وَإِنَّمَا ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ ٱللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلْإِجَادَةُ فِي فَنَّيِ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ. فَيَجْمَعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلْإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ أَثْنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَسْتَقْرِي مِنْهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ لِيُفْهَمَ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ ٱلْمُهِمِّ مِنَ ٱلْأَنْسَابِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْعَامَّةِ. وَٱلْمَقْصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ

ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه . لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه . ثم انهم اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا : الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط اذ لا مدخل بغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية . فاحتاج صاحب هذا الفن الى اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها : وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين وهي : ادب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفرع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة . وكان الغناء في الصدر الاول من اجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه . وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون انفسهم به حرصا على تحصيل اساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة وقد الف القاضي ابو الفرج الاصبهاني كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم وايامهم ودولهم . وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتم استيعاب وادناه . ولعمري

اِنَّهُ دِيوَانُ ٱلعَرَبِ وَجَامِعُ آشْتَاتِ ٱلمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو اِلَيْهَا ٱلأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَأَطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلمُرُوءَةِ وَمَنْبِهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلمَجَالِسِ . وَاِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ اِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِذَا ٱلفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ وَٱلمَفْخَرُ ٱلدِّينُ فِيهِ ٱلفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلأَنْصَارَ لِلغَيْرِ

رَزِيَّةٍ . قَالَ بَزْرَجْمِهْرُ : مَنْ كَثُرَ اَدَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَاِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَاِنْ كَانَ خَامِلا . وَسَادَ وَاِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ اِلَيْهِ وَاِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْاَدَبِ اَدْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبَهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلْاَدَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنْفَعُ نَسَبٌ بِلَا اَدَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى اِلَى نَسَبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْاَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اَقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا اَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْاَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي مَا اَنَا مَوْلًى وَلَا اَنَا عَرَبِي
وَاِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ اِلَى اَحَدٍ فَاِنَّنِي مُنْتَمٍ اِلَى اَدَبِي

فَٱلْبَسُوا اِذًا ٱلْاَدَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَاِنَّهُ اَنْفَقُ مَعَاشٍ وَاَجْمَلُ رِيَاشٍ اِنِ ٱحْتَجْتُمْ اِلَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالًا وَاِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالًا

فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اعْلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ اُسًا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنْبُوعًا. وَاسُّ اَلْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ اَلْآدَابِ هُوَ اَلْعَقْلُ اَلَّذِي جَعَلَهُ اَللّٰهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ اَلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ اَلدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اَخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ اَلْبُلَغَاءِ : اَلْعَقْلُ خَيْرُ اَلْمَوَاهِبِ وَاَلْجَهْلُ شَرُّ اَلْمَصَائِبِ. قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ اَلْفَتَى فِي اَلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ اَلْفَتَى فِي اَلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ اَلْفَتَى بِاَلْعَقْلِ فِي اَلنَّاسِ اَنَّهُ عَلَى اَلْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ اَللّٰهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ فَلَيْسَ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ اَلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ اَلْعَبْدُ بَعْدَ اَلْاِيمَانِ بِاللّٰهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ اَلْعَقْلِ. وَيُقَالُ : تَمَامُ دِينِ اَلْمَرْءِ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ . قَالَ بُزُرْجُمِهْرُ : اَلْعَقْلُ كَاَلْمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبَقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : اَلْعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ اَللّٰهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي اَلْقَلْبِ كَاَلنُّورِ فِي اَلْعَيْنِ وَهُوَ اَلْبَصَرُ.

وَكَمَا يُدْرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلْأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدْرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَخْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قَالَ بَزَرْجُمِهْرُ : ٱلْإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ أَخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ . قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي :

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلًا تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلْإِنْسَانَ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قُبِّحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ . وَلِذٰلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ : إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

إِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ . قَالَ ٱلْعُتْبِيُّ : ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللّٰهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ . وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب :

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

---

١ يُقال عَقَل الناقة عقلا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويُسمَّى الحبل عقالا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفهِ

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ الْعَقْلَ الْغَرِيزِيَّ هُوَ الْعَقْلُ الْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ . وَبِهِ

* قد قسّم القزويني القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الحائرات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال انها التصوّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة. (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر. فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض. (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل. فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يَمْتَازَ ٱلْإِنْسَانُ عَنْ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ فَإِذَا تَمَّ فِي ٱلْإِنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلًا وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ ٱلْكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ :

اِذَا تَمَّ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

وَٱخْتَلَفَ ٱلنَّاسُ فِي حَدِّ ٱلْعَقْلِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْمَعْلُومَاتِ . . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ ٱلْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَٱسْتَغْنَى ٱلْعَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ(١) . (وَٱلثَّانِي) أَنَّ ٱلْجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ فَلَوْ كَانَ ٱلْعَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بِغَيْرِ عَقْلٍ . فَٱمْتَنَعَ بِهٰذَيْنِ أَنْ يَكُونَ ٱلْعَقْلُ جَوْهَرًا . وَقَالَ آخَرُونَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ ٱلْمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ ٱلصَّوَابِ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ : أَنَّ ٱلْإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْحَيِّ (٢) وَٱلْعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذٰلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ أَلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا (٣) . وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ

---

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتفقا في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحداً فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذاً او ألماً او مشتهياً . لان اللذَّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركَّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ . وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلِاحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلِاحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ . وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ . فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ عَنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلِاثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرَّد مادَّتهُ عن المحسوسات وهـذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليَّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

اِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْمُكْتَسَبَ هُوَ نَتِيجَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ وَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْمَعْرِفَةِ وَصِحَّةِ ٱلسِّيَاسَةِ وَإِصَابَةِ ٱلْفِكْرَةِ وَلَيْسَ لِهٰذَا حَدٌّ لِأَنَّهُ يَنْمِي اِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَيَنْقُصُ اِنْ أُهْمِلَ . وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ : (ٱلْوَجْهُ ٱلْأَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ اِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوًى وَلَاصَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَٱلَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلْخِبْرَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلْأُمُورِ . وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلْعَرَبُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْمَشَايِخُ أَشْجَارُ ٱلْوَقَارِ . وَمَنَاجِعُ ٱلْأَخْبَارِ . لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ . وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ . اِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ . وَاِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ . وَقِيلَ : عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَاِنَّهُمْ اِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلْعِبَرِ . وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلْغِيَرِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ : وَقَالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلْأَيَّامُ جَاهِلًا اِلَّا أَدَّبَتْهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَأْدِيبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلْأَيَّامِ عِظَةً . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلْعَقْلِ . وَٱلْغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلْجَهْلِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

اَلَمْ تَرَ اَنَّ اَلْعَقْلَ زَيْنٌ لِاَهْلِهِ وَلٰكِنْ تَمَامُ اَلْعَقْلِ طُولُ اَلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

اِذَا طَالَ عُمْرُ اَلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ اَفَادَتْ لَهُ اَلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا اَلْوَجْهُ اَلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ اَلذَّكَاءِ وَحُسْنِ اَلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ اَلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ . فَاِذَا اَمْتَزَجَ بِاَلْعَقْلِ اَلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوَّ اَلْعَقْلِ اَلْمُكْتَسَبِ . كَالَّذِي يَكُونُ فِي اَلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ اَلْعَقْلِ وَجُودَةِ اَلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ اِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ اَلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ : عَلَيْكُمْ بِاَلْحَدِيثِ اَلسِّنِّ . اَلْحَدِيدِ اَلذِّهْنِ . وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَاعْتَذَرَ بِمَا قَالَ . لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ اِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا اِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ . فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا اِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ :

يَاهَرِمُ اَبْنَ اَلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبا اِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ اَلْعَرَبُ : عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ اَلشَّبَابِ فَاِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ اَلْقِدَمِ . وَلَا اَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ اَلْهَرَمِ . وَقَدْ قَالَ اَلشَّاعِرُ :

رَاَيْتُ اَلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ اُنْتِهَابًا وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ اَلسِّنِينَا

وَلَوْ اَنَّ اَلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ حَوَى اَلْاَبَاءَ اَنْصِبَةَ اَلْبَنِينَا

وَحَكَى اَلْاَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ اَلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ : اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ اَلْفِ دِرْهَمٍ وَاَنْتَ اَحْمَقُ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَقُلْتُ: وَلِمَ. قَالَ: اَخَافُ اَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي. فَانْظُرْ اِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَاَكْثَرُ تَجْرِبَةً. وَاَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ: اِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ اِلَّا عَبْدَاللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا لَكَ لَاتَهْرُبُ مَعَ اَصْحَابِكَ. فَقَالَ: يَا اَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ اَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَاَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَاُوسِعَ لَكَ. فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمُنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَاَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ. وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ اِنَّ مُبْدِعَ الْاَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ اَسْمَاؤُهُ اَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ. فَاَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا اَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ. وَاَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا اَنْ تَدُلَّ ذَاتُ الصُّورَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الشَّمْعِ عَلَى مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ الْمُمَثَّلَةُ فِي الطَّابَعِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِهَا فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ الْمَاءُ فِي الرَّمْلِ مَعَانِيَ حَرَكَاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خليفا بتصرّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اَللُّغَةِ بِمَعْنَى اَلشَّخْصِ وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى إِحْدَى اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ . وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ اَلصُّوَرَ اَلْمُرْتَسِمَةَ فِي اَلْحِسِّ اَلْمُشْتَرَكِ إِذَا غَابَتْ تِلْكَ اَلصُّوَرُ عَنِ اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ . وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ اَلتَّجْوِيفِ اَلْأَوَّلِ مِنَ اَلتَّجَاوِيفِ اَلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ(١). وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ اَلْخَيَالِ بِأَنَّا إِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهَلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً أُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذَلِكَ . فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ اَلذُّهُولِ لَامْتَنَعَ اَلْحُكْمُ بِأَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذَلِكَ. (وَالْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى اَلصُّورَةِ اَلْمُرْتَسِمَةِ فِي اَلْخَيَالِ اَلْمُتَأَدِّيَةِ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ اَلْحَوَاسِّ. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمَعْدُومِ اَلَّذِي اخْتَرَعَتْهُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ اَلْأُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ أَيِ اَلْمُدْرَكَةِ بِاَلْحَوَاسِّ اَلظَّاهِرَةِ . وَبِقَوْلِنَا مِنَ اَلْأُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ اَلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اخْتَرَعَتْهُ اَلْقُوَّةُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ اخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ اَلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهَذَا اَلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ اَلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ اَلشَّاعِرِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ اَلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

(١) ليس هذا الرأي بمقرّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوردي باختصار)

(راجع صفحة ٥و٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِيَ وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِيَ. وَأُنْشِدَتْ عَنِ ٱلرَّبِيعِ ٱلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي فَيَمَا بِتَلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ. وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ: كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً. وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً. فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي. وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ. أَمَا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكْلَ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مَهْبُورٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ لَفْظَةَ ٱلذَّوْق يَتَدَاوَلُهَا ٱلْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلْبَيَانِ . وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِلِسَانِ ٱلَّتِي هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصَّ تَقَعُ لِلتَّرَاكِيبِ فِي اِفَادَةِ ذٰلِكَ . فَٱلْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلْهَيْئَةَ ٱلْمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلَى اَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَاَنْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ ٱلْكَلَامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ جُهْدَهُ . فَاِذَا اَتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ اَمْرُ ٱلتَّرْكِيبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَحَوَّ فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ . وَاِنْ سَمِعَ تَرْكِيبًا غَيْرَ جَارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِاَدْنَى فِكْرٍ بَلْ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ اِلَّا بِمَا ٱسْتَفَادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ . فَاِنَّ ٱلْمَلَكَاتِ اِذَا ٱسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَاَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلْمَحَلِّ . وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ اَنَّ ٱلصَّوَابَ لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ اِعْرَابًا وَبَلَاغَةً اَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ : كَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَنْطِقُ بِٱلطَّبْعِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَاِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ ٱلْكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ اَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبْعٌ وَهٰذِهِ

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكْرُرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ . وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَالِّهَا . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعِينَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَاقَعَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ . وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ . وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يُحَصِّلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

احيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا. واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه اهل صناعة البيان. والذوق انما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وايضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق. واذا تبين لك ذلك علمت منه ان الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة اهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا امرها. لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة اخرى الى اللسان وهي لغاتهم ان يعتنوا بما يتداوله اهل المصر (١) بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا عنها كما تقدم. وانما لهم في ذلك ملكة اخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء انما حصل احكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم ان اولئك القوم

(١) وفي نسخة : اهل المضر

ٱلَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عُجْمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا ٱلْمُرَبَّى وَٱلنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَٱسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَأَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَحْيَائِهِمْ (١) حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا . فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عُجْمًا فِي ٱلنَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا ٱلْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ ٱلْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ . ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ . وَٱلْوَاحِدُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلْعُجْمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِٱلْمُدَارَسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي ٱلْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً . وَإِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًّا فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْحِفْظِ وَٱلْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَالِطٌ أَوْ مُغَالِطٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيْستْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ أَغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى أَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُزَكِّي ٱلْفِطْنَةَ . وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَرَادَ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجَوْدَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَيُّها النَّاظِرُ فِي كِتَابِي اَنَّ مَدَارَ عِلْمِ اَلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ اَلذَّوْقِ اَلسَّلِيمِ اَلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ اَلتَّعْلِيمِ. وَهٰذَا اَلْكِتَابُ وَاِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ اِلَيْكَ اُسْتَاذًا اَوْ اِذَا سَأَلْتَ عَمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَاِنَّ اَلدُّرْبَةَ وَالْاِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا. وَهُمَا يَرْيَانِكَ اَلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ اَلْقَوْلِ اِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا . فَخُذْ مِنْ هٰذَا اَلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَاسْتَنْبِطْ بِادْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ . وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَّدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا اَلطَّرِيقِ اِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يُخَالِقَ لَكَ قَلْبًا فَاِنَّ حَمْلَ اَلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ اَلْقِتَالِ

وَاِنَّمَا يَبْلُغُ اَلْاِنْسَانُ غَايَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَاَنَّ صَاحِبَ اَلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ اِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ اَلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ اَلشِّعَابِ . فَاِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ اَلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ . وَاَلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ اَلْعَلْيَاءِ اِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السايرباختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِيَ ٱللهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدْتُ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْأُولَى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي . وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْأَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَابَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلْاِقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقْعُدُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ . وَٱخْلُقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شِرْكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلْاِجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تَعَالَى لِسَانًا هَجَّامًا وَخَاطِرًا رَقَّامًا وَإِنَّمَا تَكُونُ نَفَاسَةُ ٱلْأَشْيَاءِ بِعِزَّةِ حُصُولِهَا وَمَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيْسَ حُلْوًا وُجُودُكَ ٱلشَّيْءَ تَبْغِيهِ مِ طِلَابًا حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهُ

وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ يَجْهَلُهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَعَاطِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلَّذِي يَعْلَمُهَا مِنْهُمْ يَرْضَى بِٱلْحَوَاشِي وَٱلْأَطْرَافِ وَيَقْنَعُ مِنْ لَآلِيهَا بِمَعْرِفَةِ مَا فِي ٱلْأَصْدَافِ . وَلَا أُرِيدُ بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتَابَتِهِ بِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَيْثُ أَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتَابًا إِلَّا مِنْ ذٰلِكَ بَلْ أُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا حَفِظَ مِمَّا قَدَّمْنَا شَيْئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلِكَ تَنْقِيبَ مُطَّلِعٍ عَلَى مَعَانِيهِ مُفَتِّشٍ عَنْ دَقَائِقِهِ وَقَابَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ عَرَفَ حِينَئِذٍ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ ٱلْكَتِفُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَٱسْتَعَنَّ بِٱلْمَحْفُوظِ عَلَى ٱلْغَرِيزَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ . أَلَا تَرَى صَاحِبَ ٱلِٱجْتِهَادِ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ يَفْتَقِرُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ ٱلْأَحْكَامِ وَإِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْحِسَابِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ وَٱلْمَجْهُولِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكَاتِبِ إِذَا أَحَبَّ ٱلتَّرَقِّيَ إِلَى دَرَجَةِ ٱلِٱجْتِهَادِ فِي ٱلْكِتَابَةِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَدَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَنَذْكُرُهَا

فصلٌ في صفة الكاتب ومايحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ اِنَّهُمْ قَدِ اسْتَحْسَنُوا فِي الْكَاتِبِ اعْتِدَالَ الْقَامَةِ وَصِغَرَ الْهَامَةِ وَخِفَّةَ اللَّهَازِمِ وَصِدْقَ الْحِسِّ وَلُطْفَ الْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ الشَّمَائِلِ وَحُسْنَ الْاِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ الزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْمُهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ الْكُتَّابِ فَاِنَّ فِيهِمْ اَدَبَ الْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ السُّوقَةِ . وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ الْكِتَابَةِ اَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ نَقِيَّ الْمَلْبَسِ نَظِيفَ الْمَجْلِسِ ظَاهِرَ الْمُرُوَّةِ دَقِيقَ الذِّهْنِ حَسَنَ الْفَهْمِ وَافِرَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ صَادِقَ الْحِسِّ حَسَنَ الْبَيَانِ صَحِيحَ الرَّأْيِ وَالْعِبَارَةِ مَلِيحَ التَّأَتِّي فِي نَظْمِ الْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي اللِّسَانِ حُلْوَ الْاِشَارَةِ مَلِيحَ الْاِسْتِعَارَةِ لَطِيفَ الْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ التَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ فَدْمَ الْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ الْاَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ الْخَلْقِ . فَاِنَّهُمْ زَعَمُوا اَنَّ هٰذِهِ الصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ . وَاِنِ اتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَاِلَّا فَيَكُونُ هُوَ الْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ الْكَاتِبَ . وَنَظَرَ اَحْمَدُ ابْنُ خَصِيبٍ اِلَى رَجُلٍ مِنَ الْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ الْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَاَنْ يَكُونَ هٰذَا فِنْطَاسَ مَرْكَبٍ اَشْبَهُ مِنْ اَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُناجيهِ بطَرْفِكَ مِنْ بَعيدٍ فيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِالْإِشارَهْ

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ الْخِلَالُ وَانْتَظَمَتْ فيهِ هٰذِهِ الْخِصَالُ فَهُوَ الْكَاتِبُ الْبَلِيغُ وَالْأَدِيبُ النِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ الْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ أَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ الْأَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ الْجَمَالِ مُنْكَسِفُ الْحُسْنِ مَنْحُوسُ النَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ إِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ النَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ الْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَى الْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ الْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ . وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ الطَّبْعُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَإِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ الْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ النَّارِ الْكَامِنَةِ فِي الزِّنَادِ وَالْحَدِيدَةِ الَّتِي يُقْدَحُ بِهَا . أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ الْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ الطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ الْعُلُومِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ الْمَسْلَكِ صَعْبِ الْمَأْخَذِ فَإِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ الْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَاَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ اَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي الْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي الْمَدِيحِ دُونَ الْهِجَاءِ اَوْ فِي الْهِجَاءِ دُونَ الْمَدِيحِ اَوْ يُجِيدُ فِي الْمَرَاثِي دُونَ التَّهَانِئِ اَوْ فِي التَّهَانِئِ دُونَ الْمَرَاثِي . وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ الطَّبْعِ فِي الْمَنْثُورِ . هٰذَا ابْنُ الْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ الْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْسِيقِ الْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ الْاِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ الْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ اَثَرُهُ فِيهِ . فَاُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَاَفْحَمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ الشَّيْخِ اَبِي مُحَمَّدٍ اَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ النَّحْوِيِّ اَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : اِبْنُ الْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ اَيْ اِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَاِنْ اَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَاَنْظُرْ اَيُّهَا الْمُتَاَمِّلُ اِلَى هٰذَا التَّفَاوُتِ فِي الصَّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفتهُ

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ اَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ النَّحْوِ) الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ اسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلْاِعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ اِيَرْتَسِمُ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورُ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقُ بِهِ عِقَالُ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولُ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ. فَإِنَّهُ لَوْ أَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا أَتَى بِهِ وَٱنْهَدَتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَٱلْقِي جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوُقِفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ . وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا يَتَهَيَّأُ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ ثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْأَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ سَيْرٍ أَوْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ إِلَى نَعْتِهِ . وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ أَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَاقِي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلْاِقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ إِلَى عُذْرٍ أَوْ إِبْطَالِ دَعْوَى أَوْ إِثْبَاتِهَا فَلْيَحْنُ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصْ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . . فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَأَمْثَالِهِ وَٱحْفَظْ مِنْهُ وَٱلْاِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفُكُّ ٱلْأَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْأَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْأُمُورِ إِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْأَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ أَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا ٱتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا أَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُوهَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَإِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ إِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَإِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ · أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَقُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْأَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذٰلِكَ مِنْ غَزَارَةِ ٱلْمَوَادِ وَصِحَّةِ ٱلِٱسْتِشْهَادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلْعَقْلِ وَٱنْتِزَاعِ ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْأَخْذِ فِي ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي عَلَى أَصَحِّ مِثَالٍ وَٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَوَاهِدِهَا وَٱلِٱضْطِلَاعِ مِنْ نَوَادِرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَشَوَارِدِهَا . وَقَدْ كَانَ ٱلصَّدْرُ ٱلْأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذٰلِكَ غَايَةَ ٱلِٱعْتِنَاءِ . فَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذٰلِكَ عِنْدَكَ . فَقَالَ : كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَلَا يَتَّبِعُ حُوشِيَّ ٱلْكَلَامِ وَلَا يَصِفُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِمَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجَالِ . فَإِذَا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتَابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيَارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حَلُّهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَوَاضِعُ ٱلِٱسْتِشْهَادِ بِهِ وَسَاقَهُ ٱلْكَلَامُ إِلَى إِبْرَازِ مَا فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِٱسْتِشْهَادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلَى مَا كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذٰلِكَ حِفْظُ جَانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبِي تَمَّامٍ وَمُسْلِمِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَأْخَذِهِمْ وَدَوَرَانِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كَلَامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوَلِيدِ ٱلْمَعَانِي فِي أَشْعَارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلْكِتَابَةِ وَخُصُوصًا ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ . وَكَثْرَةُ ٱلِٱسْتِشْهَادِ بِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى أَكْتَفِي بِأَبْيَاتٍ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلْغَرَضِ فِي ٱلْجَوَابِ كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَا كُتُبَ إِلَّا ٱلْمُشَرَّفِيَّةَ عِنْدَهُ ... وَلَا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِٱحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدَّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ . . . .

وَكَذٰلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْفَضْلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ . . . .

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا . فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ . فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ . وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ اَعْرِفُهَا مِنْ اَخْزَمِ . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ الصَّحَابَةُ كَثِيرٌ.

وَكَذٰلِكَ النَّظَرُ فِي (الْاَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ) فَاِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِاَمْرٍ فَيَعْرِفُ بِهَا كَيْفَ يُخَلِّصُ قَلَمُهُ عَلَى حُكْمِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ الْقَضَاءِ وَالْحِسْبَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ اُمُورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنَ التَّصَدِّي الْاِطِّلَاعِ عَلَيْهَا وَالْاِكْبَابِ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَالْاِسْتِكْثَارِ مِنْهَا. يُنْفِقُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَادِّ وَيَسْلُكُ فِي الْوُصُولِ اِلَى تِلْكَ الصِّنَاعَةِ بِذٰلِكَ الْجَوَادِّ وَاِلَّا فَلْيَعْلَمْ اَنَّهُ فِي وَادٍ وَالْكِتَابَةُ فِي وَادٍ

وَاَمَّا الْاُمُورُ الْخَاصَّةُ الَّتِي تَزِيدُ مَعْرِفَتُهَا قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ الْعِلْمُ بِهَا نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَاِنَّهَا مِنَ الْمُكَمِّلَاتِ لِهٰذَا الْفَنِّ وَاِنْ لَمْ يُضْطَرَّ اِلَيْهَا ذُو الذِّهْنِ الثَّاقِبِ وَالطَّبْعِ السَّلِيمِ وَالْقَرِيحَةِ الْمَطَاوِعَةِ وَالْفِكْرَةِ الْمُنْتَجَةِ وَالْبَدِيهَةِ الْمُجِيبَةِ وَالرَّوِيَّةِ الْمُتَصَرِّفَةِ . لٰكِنَّ الْعَالِمَ بِهَا مُتَمَكِّنٌ مِنْ اَزِمَّةِ الْمَعَانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَيَنْتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَسْتَحْسِنُ بِبُرْهَانٍ وَيَصُوغُ الْكَلَامَ بِتَرْتِيبٍ

فَمِنْ ذٰلِكَ (عِلْمُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانُ وَالْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَاَنَا اُشِيرُ الْاٰنَ اِلَى نُكَتٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ هٰذَا الْعِلْمِ وَعِظَمِ الْفَائِدَةِ بِهِ وَاَنَّ الْاَدِيبَ وَالْكَاتِبَ الْعَارِيَيْنِ مِنْهُ قَاصِرَانِ عَنْ اَدْنَى رُتَبِ الْكَمَالِ يُجِيدَانِ وَلَا يَدْرِيَانِ كَيْفَ يُجِيبَانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعْنًى اَسْتَحْسَنَهُ اَوْ لَفْظٍ اَسْتَحْلَاهُ اَوْ تَرْكِيبٍ اَسْتَجَادَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْاِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى ذٰلِكَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

يَا اَبَا جَعْفَرَ اَنْتَ حُكْمٌ فِي الشِّعْرِ م وَمَا فِيكَ آلَةُ الْحُكَّامِ

اِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ اِلَّا عَلَى ٱلصَّرْ فِيِّ صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْأَ مْشَاعِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ اِلَى اَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : اِنِّي اَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي اَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَ ذٰلِكَ . قَالَ : وَجَدتُ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ اِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : اِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ اِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا اَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَاِذَا ذُهِبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَاِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي اَمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ اَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتَعَلُّ مَوَادِّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ اِلَى اَيْفَاعِهِ

الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

اِن اَلْإِنْشاءَ علمٌ يُبْحثُ فِيهِ عَنِ اَلْمنثورِ مِنْ حَيثُ اِنَّهُ بَليغٌ وَفَصيحٌ وَهُوَ مُشتَمِلٌ عَلَى اَلْآدَابِ اَلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي اَلْعِبارَاتِ اَلْمُسْتَحْسَنَةِ وَاَللَّائِقَةِ بِالْمَقامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ اَلْخُطَبِ وَالرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ اَسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ اَلْعُلُومِ سِيَّمَا اَلْحِكْمَةِ اَلْعَمَلِيَّةِ وَاَلْعُلُومِ اَلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ اَلْمُلُوكِ وَوَصَايَا اَلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ اَلْأُمُورِ اَلْغَيْرِ اَلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ اَبُو اَلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا اَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ اَلْاِنْشَاءِ وَاَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَاَمَّا اَبْنُ صَدْرِ اَلدِّينِ فَاِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ اَلْمَحَاسِنِ وَاَلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ اَلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ اَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيثُ اِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى اَلْمُنْشِئِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ اَلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ اَعْلَى كَعْبًا فِي اَلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ اَسْتِعْمَالِ اَلْاَلْفَاظِ اَلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ اَلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتُهُ وَاَنْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَاَنْ يَجْعَلَ ٱلْاَلْفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . اِذِ ٱلْمَعَانِي اِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِاَنْفُسِهَا اَلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَاَمَّا جَعْلُ ٱلْاَلْفَاظِ مُتَكَلِّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ اَنْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِاِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ اِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَاَنَّهُ غَيْرُ سَوْقٍ لِاِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اَعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْاِنْشَاءَ اَنْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : اِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ اَنْ يُلَاحِظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالَ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ اِلَيْهِ وَيُعْنَوْنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْاِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْاَعْجَمِيُّ وَاَفْصَحَ اِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلُصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَاَفْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْاِعْجَازُ . قَالَ ٱلْاِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اَعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ ٱللَّبَنُ اِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْاِصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ اِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ اِذَا ٱنْتَهَيْتُ اِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غَيْرِي. وَمَبْلَغُ ٱلشَّيْءِ مُنْتَهَاهُ . وَٱلْمُبَالَغَةُ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلْٱنْتِهَاءُ إِلَى غَايَتِهِ. فَسُمِّيَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بَلَاغَةً لِأَنَّهَا تُنْهِي ٱلْمَعْنَى إِلَى قَلْبِ ٱلسَّامِعِ فَيَفْهَمُهُ وَسُمِّيَتِ ٱلْبُلْغَةُ بُلْغَةً لِأَنَّكَ تَتَبَلَّغُ بِهَا فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَهِيَ ٱلْبَلَاغُ أَيْضًا. وَيُقَالُ: ٱلدُّنْيَا بَلَاغٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّيكَ إِلَى ٱلْآخِرَةِ. وَٱلْبَلَاغُ أَيْضًا ٱلتَّبْلِيغُ . وَمِنْهُ : هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ أَيْ تَبْلِيغٌ. وَيُقَالُ: بَلَغَ ٱلرَّجُلُ بَلَاغَةً إِذَا صَارَ بَلِيغًا كَمَا يُقَالُ نَبُلَ نَبَالَةً إِذَا صَارَ نَبِيلًا. وَكَلَامٌ بَلِيغٌ وَبَلْغٌ (بِالْفَتْحِ) كَمَا يُقَالُ وَجِيزٌ وَوَجْزٌ. وَرَجُلٌ بِلْغٌ (بِالْكَسْرِ) يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ وَفِي مَثَلٍ لَهُمْ: أَحْمَقُ بِلْغٌ. وَيُقَالُ : أَبْلَغْتُ فِي ٱلْكَلَامِ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ : أَبْرَحْتُ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبَرَحَاءِ وَهُوَ ٱلْأَمْرُ ٱلْجَسِيمُ . وَٱلْبَلَاغَةُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةٍ كَانَ مَوْضُوعُهَا ٱلْكَلَامَ وَتَسْمِيَتُنَا ٱلْمُتَكَلِّمَ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ تَوَسُّعٌ وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ كَلَامَهُ بَلِيغٌ كَمَا تَقُولُ : فُلَانٌ رَجُلٌ مُحْكَمٌ وَتَعْنِي أَنَّ أَفْعَالَهُ مُحْكَمَةٌ . وَكَذٰلِكَ كَثْرَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ جَعَلَتْ تَسْمِيَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ كَٱلْحَقِيقَةِ

أَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : أَفْصَحَ فُلَانٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ إِذَا أَظْهَرَهُ . وَٱلشَّاهِدُ عَلَى أَنَّهَا هِيَ ٱلْإِظْهَارُ قَوْلُ ٱلْعَرَبِ أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ وَفَصَحَ أَيْضًا . وَأَفْصَحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ إِذَا أَبَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُبِينُ وَفَصُحَ ٱللِّحَانُ إِذَا عَبَّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَأَظْهَرَهُ عَلَى جِهَةِ ٱلصَّوَابِ دُونَ ٱلْخَطَإِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ عَلَى هٰذَا فَٱلْفَصَاحَةُ

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ : زِيَادُ ٱلْأَعْجَمِ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْإِهْمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبِغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلِٱسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينَ لَعْقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِصُوا بِٱلِٱبْتِلَاءِ قَلَّ ٱلدَّيَّانُونَ . وَمَثَلُ ٱلْمَنْظُومِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ ٱلْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَمَا ٱشْرَقَتْ فَوْقَ ٱلصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ ٱلْجَوْدَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ ٱلْوَفَاةِ فَقَالَ : يَا حَالَ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا آنِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدْتُ إِلَى ٱلْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وَشَفَعْتَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَٱلرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ ٱلْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ ٱلْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ ٱلصَّدِّ . وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ بِقَوْلِ ٱلْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : ٱلشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَٱلْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَٱللِّسَانُ هَا هُنَا ٱلْكَلَامُ . وَٱلرَّزِينُ ٱلَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ . وَإِنَّمَا قَصَدْتُ فِيهِ مَقْصِدَ صُنَّاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ أُطِلِ ٱلْكَلَامَ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى ٱلْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ أَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ إِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ : أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا ظَهَرَ ثُمَّ إِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِٱعْتِرَاضَاتِ . (أَحَدُهَا) : أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : أَنَّهُ إِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْإِضَافَاتِ إِلَى ٱلْأَشْخَاصِ فَإِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ إِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّهُ إِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَاهِيَّتُهَا لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : أَنَّهُ إِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُوعَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِٱعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ إِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى أَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا أُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي إِيَّاهُ أَنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَأُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَاحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ : اِنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَاعْنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلْبَيِّنِ اَنْ تَكُونَ اَلْفَاظُهُ مَفْهُومَةً لَا يُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا اِلَى اَسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَاِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ بَيْنَ اَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَاِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِاعْتِبَارِ اَلْفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَاخْتَارُوا ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ فَاسْتَعْمَلُوهُ وَنَفَوْا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلِاسْتِعْمَالِ سَبَبُ اَسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَاَسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلْفَصِيحُ اِذَنْ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ هُوَ ٱلْحَسَنُ . فَاِنْ قِيلَ : مِنْ اَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ اَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ حَتَّى اَسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ : اِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِاَنَّ ٱلْاَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلْاَصْوَاتِ فَٱلَّذِي يَسْتَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ اِلَيْهِ هُوَ ٱلْحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلْقَبِيحُ . اَلَا تَرَى اَنَّ ٱلسَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ ٱلْبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ اِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلْحِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلْفَرَسِ . وَٱلْاَلْفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَاِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي اَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَاَنَّ لَفْظَةَ ٱلْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَاِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ ٱلْمُزْنَةِ

وَالدِّيمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَأْلُوفَيِ الْاِسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ الْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ . وَاِنِ اسْتُعْمِلَ فَاِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْفَصَاحَةِ اَوْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَاِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْاَقْدَمِينَ فَاِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ اِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا . وَاِذَنْ ثَبَتَتْ اَنَّ الْفَصِيحَ مِنَ الْاَلْفَاظِ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ وَاِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِاَنَّهُ مَأْلُوفُ الْاِسْتِعْمَالِ وَاِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ الْاِسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِالسَّمْعِ . وَالَّذِي يُدْرَكُ بِالسَّمْعِ اِنَّمَا هُوَ اللَّفْظُ لِاَنَّهُ صَوْتٌ يَأْتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَمَا اسْتَلَذَّهُ السَّمْعُ مِنْهُ فَهُوَ حَسَنٌ وَمَا كَرِهَهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ وَالْحَسَنُ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالْفَصَاحَةِ وَالْقَبِيحُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِفَصَاحَةٍ لِاَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وَقَدْ مَثَّلْتُ الْمِثَالَ الْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ الْمُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ وَلَفْظَةِ الْبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ لِاَمْرٍ يَرْجِعُ اِلَى الْمَعْنَى لَكَانَتْ هٰذِهِ الْاَلْفَاظُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ سَوَاءً لَيْسَ مِنْهَا حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحٌ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ عَلِمْنَا اَنَّهَا تَخُصُّ اللَّفْظَ دُونَ الْمَعْنَى . وَلَيْسَ لِقَائِلٍ هٰهُنَا اَنْ يَقُولَ لَا لَفْظَ اِلَّا بِمَعْنًى فَكَيْفَ فَصَلْتَ اَنْتَ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى . قُلْتُ : لَمْ اَفْصِلْ بَيْنَهُمَا وَاِنَّمَا خَصَصْتُ اللَّفْظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَالْمَعْنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ اِلَى ثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ : (اَلْاَوَّلُ) مِنْهَا اِخْتِيَارُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱللَّآلِئِ ٱلْمُبَدَّدَةِ فَاِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ ٱلنَّظْمِ . (اَلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اُخْتِهَا فِي ٱلْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْعِقْدِ ٱلْمَنْظُومِ فِي اِقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا ٱلْمُشَاكِلَةِ لَهَا . (اَلثَّالِثُ) ٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ اَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلْعِقْدُ ٱلْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ اِكْلِيلًا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي ٱلْاُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ اَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَصْلُ ٱلْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . فَٱلْاَوَّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ هُمَا ٱلْمُرَادُ بِٱلْفَصَاحَةِ . وَٱلثَّلَاثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ ٱلْمُرَادُ بِٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَكَيْفَ ٱلْجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

اَلَّذِي يُؤْتِيهِ اللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ اِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ الْاَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ لِلْاَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَاخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَاسْتَحْسَنَ اَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ اسْتَقْبَحَ الْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا النَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى السِّرِّ فِي اِتِّصَافِ بَعْضِ الْاَلْفَاظِ بِالْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِالْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَاَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْجُهَّالِ اِذَا قِيلَ لِاَحَدِهِمْ اِنَّ هٰذِهِ اللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ اَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ الْاَلْفَاظِ حَسَنٌ وَالْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ اِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغْ جَهْلُهُ اِلَى اَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ الْغُصْنِ وَلَفْظَةِ الْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ الْاِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ السَّيْفِ وَلَفْظَةِ الْخَشَايِلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْاَسَدِ وَلَفْظَةِ الْقَرْدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي اَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ اَوْصَافٌ اُخَرُ يَنْبَغِي اَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا اَنْ لَا تَكُونَ الْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ الْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنْتَمِينَ اِلَى صِنَاعَةِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَظَنُّوهُ الْمُسْتَقْبَحَ مِنَ الْاَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ الْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ اَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَالْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ مَنْسُوبٌ اِلَى اسْمِ الْوَحْشِ الَّذِي يَسْكُنُ الْقِفَارَ وَلَيْسَ بِاَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ الْاَلْفَاظُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَاْنُوسَةَ الْاِسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْوَحْشِ اَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ اَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَاْلَفُ

ٱلْإِنْسَ فَتَارَةً يَكُونُ حَسَنًا وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ أَحَدَ قِسْمَيِ ٱلْوَحْشِيِّ وَهُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلْحَسَنُ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنِّسَبِ وَٱلْإِضَافَاتِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ ٱلَّذِي هُوَ قَبِيحٌ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ وَلَا يَخْتَلِفُ بِهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ وَلَا قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ . وَأَحْسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا إِلَّا لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى ذٰلِكَ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَإِنَّ أَرْبَابَ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ نَظَرُوا إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ وَنَقَّبُوا عَنْهَا ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى ٱلْأَحْسَنِ مِنْهَا فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهُوَ أَيْضًا يَتَفَاوَتُ فِي دَرَجَاتِ حُسْنِهِ فَٱلْأَلْفَاظُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : قِسْمَانِ حَسَنَانِ وَقِسْمٌ قَبِيحٌ . فَٱلْقِسْمَانِ ٱلْحَسَنَانِ أَحَدُهُمَا مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هٰذَا وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ . وَٱلْآخَرُ مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلْأَوَّلُ دُونَ ٱلْآخِرِ وَيَخْتَلِفُ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلزَّمَنِ وَأَهْلِهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَحْشِيًّا وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ

وَلَا يَسْبِقْ وَهْمُكَ أَيُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ ٱلَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ غَلَطُ ٱلطَّبْعِ وَفَجَاجَةُ ٱلذِّهْنِ بِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا فَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ . بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلَّذِي نَسْتَحْسِنُهُ نَحْنُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مُسْتَحْسَنًا وَٱلَّذِي نَسْتَقْبِحُهُ هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا . وَٱلِٱسْتِعْمَالُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى ٱلْحُسْنِ فَإِنَّا نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ ٱلْآنَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا

ليس بمحسن وإنما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الاحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الالفاظ واختيارها فانه معذور في ان يقول ما قال :

لا يعرف الحزن الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فان قول القائل : بان العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على انه حسن. قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل. فان استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس للتقليد فيه مجال وانما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه. واما الذي نقلد العرب فيه من الالفاظ فانما هو الاستشهاد باشعارها على ما ينقل من لغتها والاخذ باقوالها في الاوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط واشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الالفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو او الى عمرو دون زيد لانه وصف ذوويّ لا يتغير الا بالاضافة . الا ترى ان لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف احد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغاظ له النكير حيث استعملها

فلا تظنَّ انَّ الوحشيَّ من الالفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به وانَّما هو الغريب الذي يقلُّ استعماله فتارة يخفّ على سمعك ولا تجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة. وذلك في اللفظ عيبان: (احدهما) انه غريب الاستعمال (والآخر) انه ثقيل على السمع كريه على الذوق. واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته وهو الذي يسمى الوحشيَّ الغليظ ويسمّى ايضا المتوعر وليس وراءه في القبح درجة اخرى ولا يستعمله الا الجهل الناس ممَّن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن اصلا. فان قيل: فما هذا النوع من الالفاظ. قلت: قد ثبت لك انه ما كرهه سمعك وثقل على لسانك النطق به. وسأضرب لك في ذلك مثالا فمنه ما ورد لتأبط شرًا في كتاب الحماسة:

يظلُّ بموماةٍ ويمسي بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

فانَّ لفظة (جحيش) من الالفاظ المنكرة القبيحة. ويا لله العجب اليس انَّها بمعنى (فريد) وفريد لفظة حسنة رائقة ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختلَّ شيئا من وزنه. فتأبط شرًا ملوم من وجهين في هذا الموضع: احدهما انه استعمل القبيح. والآخر انه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه. ومما هو اقبح منها ما ورد لابي تمام قوله:

قد قلت لما اطلخمَّ الامر وانبعثت عشواء تالية غبسا دهاريسا

فَلَفْظَةُ (أَطْخَمَّ) من الألفاظِ المُنكرةِ التي جمعتِ الوصفَيْنِ القبيحَيْنِ في أنها غريبةٌ وأنها غليظةٌ في السمعِ كريهةٌ على الذوقِ وكذلكَ لفظةُ (دهاريس) أيضاً . وعلى هذا وردَ قولُه من أبياتٍ يصفُ فرساً من جملتِها :

نِعمَ متاعُ الدنيا حبّاكَ بهِ اروعُ لا جَيدرٌ ولا جبسْ

فلفظةُ (جَيدر) غليظةٌ . وأغلظُ منها قولُ ابي الطيبِ المتنبي :

جَفَخَتْ وهُمْ لا يجفخونَ بها بهمْ شيمُ على الحسبِ الأغرِّ دلائلُ

فإنَّ لفظةَ (جفخَ) مرةَ الطعمِ وإذا مرّتْ على السمعِ أقشعرَّ منها وأبو الطيبِ في استعمالها كاستعمالِ تأبطَ شرّاً لفظةَ جحيش . فإنَّ تأبطَ شرّاً كانتْ له مندوحةٌ عن استعمالِ تلكَ اللفظةِ كما اشرنا فيما تقدم . وكذلكَ ابو الطيبِ في استعمالِ هذهِ اللفظةِ التي هي جَفَخَتْ فانَّ معناها فخرتْ والجفخُ الفخرُ يقالُ : جَفَخَ فلانٌ اذا فخر . ولو استعملَ عوضاً عن جفختْ فخرتْ لاستقامَ البيتُ وحظيَ في استعمالهِ بالأحسنِ . وما اعلمُ كيفَ يذهبُ هذا وامثالُه على مثلِ هؤلاءِ الفحولِ من الشعراءِ . وهذا الذي ذكرتُه وما يجري مجراهُ من الألفاظِ هو الوحشيُّ الغليظُ الذي ليسَ لهُ ما يُدانيهِ في قبحهِ وكراهتهِ . وهذهِ الأمثلةُ دليلٌ على ما اوردناهُ . والعربُ اذنْ لا تُلامُ على استعمالِ الغريبِ الحسنِ من الألفاظِ وانما تُلامُ على الغريبِ القبيحِ . واما الحضريُّ فانهُ على استعمالِ القسمَيْنِ معاً وهو في احدِهما اشدُّ ملامةً منهُ في الآخرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ الى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ اَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ اِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْاَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ اِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ اَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا : ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَاِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَاَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْاِسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ . كَالْعَيْنِ فَاِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلْاِسْتِعْمَالِ اِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِاَنَّا اِذَا قُلْنَا : عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِاِزَاءِ هٰذَا ٱلْاِسْمِ . وَاِذَا قُرِنَ اِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْاِبْهَامُ بِاَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ اَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

انَّ ذٰلكَ يُخِلُّ بفائدةِ وَضْعِ اللُّغةِ لانَّ اللُّغةَ انَّما هِيَ وَضْعُ الالفاظِ فِي دَلالتِها عَلَى المَعاني اي وَضْعُ الاسماءِ عَلَى المُسمَّياتِ لتكونَ مُبيِّنةً عَنْها عندَ اطْلاقِ اللفظِ والاشتراكُ لا بيانَ فِيهِ وانما هوَ ضِدُّ البيانِ. لكنَّ طريقَ البيانِ انْ يُجعلَ احدُ المعنيَيْنِ فِي اللفظِ المُشتركِ حقيقةً والآخرُ مجازيا. فاذا قلنا: هذهِ كلمةٌ. واطلقنا القولَ فُهِمَ منهُ اللفظةُ الواحدةُ. واذا قيدنا اللفظَ فقلنا: هٰذهِ كلمةٌ شاعِرةٌ. فُهِمَ مِنهُ القصيدةُ المقصدةُ من الشعرِ وهِيَ مجموعُ كلماتٍ كثيرةٍ. ولو اطلقنا مِنْ غيرِ تقييدٍ واردنا القصيدةَ مِنَ الشعرِ لما فُهِمَ مرادُنا البتةَ. هٰذا خلاصةُ ما ذهبَ اليهِ مَنْ ينكرُ وقوعَ اللفظِ المشتركِ فِي المعنيَيْنِ حقيقةً. وفي ذلكَ ما فيهِ. وسأبيِّنُ ما يدخلُهُ مِنَ الخللِ فاقولُ فِي الجوابِ عنْ ذٰلكَ ما استخرجتُهُ بفكري ولمْ يكُنْ لاحدٍ فيهِ قولٌ مِنْ قبلي وهُو: اما قولُك: انَّ فائدةَ وضعِ اللُّغةِ انَّما هُوَ البيانُ عندَ اطلاقِ اللفظِ واللفظُ المشتركُ يُخِلُّ بهذهِ الفائدةِ. فهذا غيرُ مُسلَّمٍ بَلْ فائدةُ وضعِ اللغةِ هُوَ البيانُ والتحسينُ

(اما البيانُ) فقد وفى الاسماءَ المتباينةَ التي كلُّ اسمٍ واحدٍ دلَّ عَلَى مُسمًّى واحدٍ. فاذا اطلقَ اللفظُ فِي هٰذهِ الاسماءِ كانَ بيِّنا مفهوماً لا يحتاجُ الى قرينةٍ ولوْ لمْ يضعِ الواضعُ من الاسماءِ شيئًا غيرَها لكانَ كافيا فِي البيانِ

(واما التحسينُ) فانَّ الواضعَ لهذهِ اللُّغةِ العربيةِ التي هِيَ احسنُ اللُّغاتِ نظرَ الى ما يحتاجُ اليهِ اربابُ الفصاحةِ والبلاغةِ فيما يصوغونَهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ وَرَأَى اَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ اِلَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ اِسْمٍ وَاحِدٍ دلَّ عَلَى مُسَمَّيَيْنِ فَصَاعِدًا فَوَضَعَهَا مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ اِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٤٥ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ اَنْ تَكُونَ مِمَّا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْفُصَحَاءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ فَسلم مِنْ سِتَّةِ اَشْيَاءَ . (ٱلْاَوَّلُ) : اَنْ لَا يَتْرُكَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعَخْعَخِ) وَهُوَ نَبْتٌ. سُئِلَ اَعْرَابِيٌّ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعَخْعَخَ. وَاِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (ٱلثَّانِي) : اَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقَلٌ. (ٱلثَّالِثُ) :

اَنْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيا فِي كَثْرَةِ اَلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ : خَنْدَرِيس . وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ : حِدْ عَنْ ذَا اَلْمَرءِ . وَخَيْرُ اَلْاُمُورِ اَوْسَطُهَا وَهُوَ اَلثُّلَاثِيُّ اِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ اَلْاِبْتِدَاءِ وَحَرْفِ اَلْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ اَلْوَقْفِ وَالْاِبْتِدَاءِ . اَمَّا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ اَلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ اَللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ : اَخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ اَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ . (اَلرَّابِعُ) : اَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ : اَلْاَسْفَنْطِ لِلْخَمْرِ وَالْخِنْشَايِلِ لِلسَّيْفِ وَاَلْفَدَوْكَسِ لِلْاَسَدِ . فَهَذِهِ اَلْاَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا اَلطَّبْعُ وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى مَعْنَاهَا اِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ اَللُّغَةِ . (اَلْخَامِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مَبْذُولًا وَذَلِكَ نَحْوُ اَنْ تَخْرُجَ اَللَّفْظَ عَنْ اَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ . (اَلسَّادِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ . فَاِنَّهُ يَحْتَمِلُ اَلْاِكْرَامَ وَالْاِهَانَةَ . فَلَوْ كَانَ فِي اَلْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى اَلْمَعْنَى اَلْحَسَنِ لَكَانَ اَللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ اَلْمَعْنَى اَلْحَسَنَ . وَعَلَيْهِ يَكُونُ اَللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيَعُدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ اَلْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَاَمَّا اَلْفَصَاحَةُ فِي اَلتَّرْكِيبِ فَهُوَ اَنْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اَشْيَاءَ . (اَلْاَوَّلُ) : سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ اَلسِّتَّةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُتَقَدِّمَةِ اَلذِّكْرِ فِي اَلْمُفْرَدِ لِاَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ . (اَلثَّانِي) : اَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضُعْفِ اَلتَّاْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ اَلْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ :

جَزا رَبُّهُ عَنّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ جَزاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَانَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي اِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبِّهِ) الى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَاَخِّرٌ لفظًا وَمَعْنًى . وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ اَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ عَلَى مَا قَبْلَهُ اَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفْظًا لا مَعْنًى . (ٱلثَّالِثُ) : اَنْ يَسْلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ اَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلْاِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَةٍ فَاِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ : انَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمْكِنُ اِنْشَادُهُ فِي ٱلْعَالَبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ اَلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِاَنَّ نَفْسَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْمَخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقْلًا . وَاذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ اِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْمُفْرَدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمْ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

كَرِيمٌ مَتَى اَمْدَحْهُ اَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى مَعِي وَاذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (اَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجْهِ اَنَّ حُرُوفَ (اَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِاجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَاقِ . (ٱلرَّابِعُ) : اَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ اِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى . فَمِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَتَاْخِيرِ ٱلْاَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ اِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ اِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ. لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ نُخُوفَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربه الّا ابن اخته وهو همام المملك اي المعطى الملك

(٢) المعنى اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن والتوجع غصصاً تعرض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسر

ذٰلِكَ . (اَلْخَامِسُ) اَنْ يَسْلَمَ مِنَ اَلتَّكْرَارِ اَلْمُوجِبِ فِي اَلثِّقْلِ كَتَكْرَارِ اَللَّفْظَةِ ذَاتِهَا وَتَوَالِيَ اَلْاِضَافَاتِ وَاَلصِّفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِالْفَصَاحَةِ قَطْعًا تَكْرَارُ اَللَّفْظَةِ لِلتَّوْكِيدِ وَاِنَّمَا يُعَابُ قُبْحُ اَلتَّكْرَارِ بِلَا فَائِدَةٍ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ اَلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا

كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنِ

فَجَاءَتِ اَلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . (وَتَتَابُعُ اَلْاِضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ اِبِي فَائِدٍ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ اَلْجَنْدَلِ اِسْجَعِي فَاَنْتِ بِمَرْاَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةَ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةَ وَحَوْمَةَ اِلَى اَلْجَنْدَلِ . وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوسٍ

(وَتَوَالِي اَلصِّفَاتِ) ذَكَرَهُ اَلطَّيِّبِيُّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي اَلْكَلَامِ ثِقْلًا وَاَسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ اَلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ اَعَزُّ حُلْوٌ مُرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

---

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا. والحومة معظم الشيء. والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارضٍ قفرةٍ سجعة فان سعاد تراك وتسمعك

الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاول

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلاغَةُ كُلُّ ما تَبلَغُ بِهِ اَلْمَعْنى قَلْبَ اَلسّامِعِ فَتَمَكَّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَاِنَّما جَعَلْنا حُسْنَ اَلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ اَلصُّورَةِ شَرْطًا فِي اَلْبَلاغَةِ لِاَنَّ اَلْكَلامَ اِذا كانَتْ عِبارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَليغًا وَاِنْ كانَ مَفْهُومُ اَلْمَعْنى مَكْشُوفَ اَلْمَغْزى . اَلا تَرى اِلى مَعْنى اَلْكِتابِ اَلَّذي كَتَبَ اِلى بَعْضِ مُعامِلِيهِ : (قَدْ تَاَخَّرَ اَلْاَمْرُ فِيما وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضُحْوَةَ اَلنَّهارِ وَاَلْقَوْمُ غَيْرُ مُقيمينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَاِنْ رَاَيْتَ فِي اِزاحَةِ اَلْعِلَّةِ مَعَ اَلْجَهْدِ فَعَلْتَ اِنْ شاءَ اَللّٰهُ) . فَمَعْناهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلامُهُ بِبَليغٍ فَهٰذا يَدُلُّ عَلى اَنَّ مِنْ شَرْطِ اَلْبَلاغَةِ اَنْ يَكُونَ اَلْمَعْنى مَفْهُومًا وَاللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلى مَا قَدَّمْناهُ . وَمَنْ قالَ اِنَّ اَلْبَلاغَةَ اِنَّما هِيَ اِفْهامُ اَلْمَعْنى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ اَلْفَصاحَةَ وَاَللُّكْنَةَ وَاَلْخَطَاَ وَالصَّوابَ وَالْاِغْلاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سَوَاء . وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهَمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيْضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَيْنَا أَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلْآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيْسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعُتَابِيُّ : كُلُّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَلْكَنُ بَلِيغًا لِأَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِغَمْغَمَتِهِ وَلَكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَوْرُ بَلِيغًا لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضَغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْأَعْجَمِيِّ ٱلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْأَعْرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلْأَعْرَابِ عَنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : كَيْفَ أَهْلُكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعْرَابِيُّ : صَالِبًا . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يُهْلَكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلُ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَشْيَاءَ أَفْهَمُهَا وَأَشْيَاءَ لَا أَفْهَمُهَا

فإمَّا أنْ يكُونَ قائلُها أشعرَ منْ جميعِ النَّاسِ وإمَّا أنْ يكُونَ جميعُ النَّاسِ أشعرَ منهُ . ونَحْنُ نفهمُ معانِي هذهِ القصيدةِ بأسرِها لعادَتِنا لسماعِ مثلِها لا لأنَّا أعرفُ بالكلامِ منَ الأعرابِ . ومِمَّا يؤيِّدُ ما قُلنا منْ أنَّ البلاغةَ إنَّما هِي إيضاحُ المعنَى وتحسينُ اللفظِ قولُ بعضِ الحُكَماءِ : البلاغةُ تصحيحُ الأقسامِ واختيارُ الكلامِ إلَى غيرِ ذلكَ . وقالَ محمدُ بنُ الحنفيَّةِ : البلاغةُ قولٌ يخطرُ العقولَ إلَى فهمِهِ بأسهلِ العبارةِ . فقولُهُ : (يخطرُ العقولَ إلَى فهمِهِ) عبارةٌ عنْ إيضاحِ المعنَى . وقولُهُ : (بأسهلِ العبارةِ) تنبيهٌ علَى تسليسِ اللفظِ وتركِ تنقيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخَّص عن زهر الآداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قالَ أعرابيٌّ : البلاغةُ التقرُّبُ منَ البعيدِ والتباعُدُ منَ الكلفةِ والدَّلالةُ بقليلٍ علَى كثيرٍ . قالَ عبدُ الحميدِ بنُ يحيَى : البلاغةُ تقريرُ المعنَى في الأفهامِ منْ أقربِ وجوهِ الكلامِ . قالَ ابنُ المعتزِّ : البلاغةُ البلوغُ إلَى المعنَى ولَمْ يطلْ سفرُ الكلامِ . قالَ سهلُ بنُ هارونَ : البيانُ ترجمانُ العقولِ وروضُ القلوبِ . وقالَ أيضًا : العقلُ رائدُ الرُّوحِ والعلمُ رائدُ العقلِ والبيانُ ترجمانُ العلمِ . قالَ إبرهيمُ الإمامُ : يكفِي منَ البلاغةِ أنْ لا يؤتَى السَّامعُ منْ سوءِ فهمِ النَّاطقِ ولا يؤتَى النَّاطقُ منْ سوءِ فهمِ السَّامعِ . قالَ العتابِيُّ : البلاغةُ مدُّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ اذَا قَصُرَ وَحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ اِذَا طَالَ . قَالَ ٱعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاِطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْاَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وَقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلْاِقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارَةُ يَوْمَ ٱلْاِطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْاِشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيصَالُ ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ اِيجَازُهُ . وَقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ اِعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَاَعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ اَحْمَدَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وَقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْقَصْدُ اِلَى ٱلْحُجَّةِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِاِبْرَهِيمَ ٱلْاِمَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْاِصَابَةُ

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المغايرة في الامور القابلة المدح والذم

قَالَ اسحاقُ بْنُ حَسَّان : لَمْ يُفسّرْ اَحَدٌ اَلبَلاغَةَ تَفسيرَ اَبْنِ اَلْمُقَفَّعِ اذْ قَال : اَلْبَلاغَةُ لَمعانٍ تَجْري فِي وُجُوهٍ كَثيرَةٍ : فَمِنها مَا يَكُونُ فِي الْاشارَةِ . وَمِنها مَا يَكُونُ فِي اَلْحَديثِ . وَمِنْها مَا يَكُونُ في اَلاسْتِمَاع وَمِنْها مَا يَكُونُ في اَلاحْتجاجِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرا . وَمِنها مَا يَكُونُ اَبْتداء . وَمِنْها مَا يَكُونُ جَوَابًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعا . وَمِنها مَا يَكُونُ خُطَبًا . وَمِنها رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائلَ . فَغَايَةُ (١) هٰذهِ اَلْاَبْوَابِ اَلْوَحْيُ فيها وَاَلْاِشَارَةُ الى اَلْمَعْنَى اَبْلَغُ وَاَلْاِيجَازُ هُوَ اَلْبلاغَةُ . فَالسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلاغَةً مَجَازًا وَهُوَ في حَالَةٍ لا يُجْدِي فيها اَلْقَوْلُ ولا يَنْفَعُ فِيهَا اِقَامَةُ اَلْحُجَجِ اما عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ اَلْخِطَابَ اَوْ عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ اَلْجَوَابَ . اَوْ ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِاَلْهَوَى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ اَلتَّقْوَى وَاذا كَانَ اَلْكَلامُ يُعْرَى مِنَ اَلْخَيْرِ اَوْ يَجْلِبُ اَلشَّرَّ فَاَلسُّكُوتُ اَوْلَى كَمَا قَالَ اَبُو اَلْعَتَاهِيَة :

مَا كُلُّ مُنْطِقٍ لَهُ جَوَابٌ جَوَابُ مَا يُكْرَهُ اَلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ اَرْفَقَ مِنْ كَلامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ اَلدَّلَالَةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ دَلَائِلَ اَلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ اَلْاَشْيَاءِ وَاضِحَةٌ . وَالْمَوْعِظَةُ فِيهَا قَائِمَةٌ . وَقَدْ قَالَ اَلرَّقَاشِيُّ : سَلِ اَلْاَرْضَ مَنْ شَقَّ اَنْهَارَكِ وَغَرَسَ اَشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ . فَاِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا اَجَابَتْكَ اِعْتِبَارًا . وَقَوْلُ اَبْنُ اَلْمُقَفَّعِ : (رُبَّمَا كَانَتِ اَلْبَلاغَةُ بِاَلْاِسْتِمَاعِ) فَلِاَنَّ اَلْمُخَاطَبَ اِذَا لَمْ يُحْسِنِ اَلْاِسْتِمَاعَ لَمْ

---

(١) وفي نسخة : عامّة

يَقِفْ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي اِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِاسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى اِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ اُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ اَنْ تَدَعَ ٱلْاِفْصَاحَ بِهَا اِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا اِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْاِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ اَحْضَرَ نَفْعًا . قَالَ آخَرُ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعَهُ . وَيُؤْيِسُ مَصْنَعَهُ . وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ اَنْوَارَهَا . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا . لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ اَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ اَوْ سِنَانُهُ . اَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ اَنْ يَبْلُغَ اَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِاَلْفَاظٍ اَعْيَانٍ وَمَعَانٍ اَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا اِخْلَالٌ يُفْضِي اِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ اِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْاَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ اِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِاَلْيَنِ زِمَامٍ . حَتَّى كَانَ ٱلْاَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ اِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلْاِنْثِيَالِ عَلَى اَنَامِلِهِ كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ اِذْ سَهِرْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ اَصْغَرُ صِفَاتِهِ . وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَاَنَّهُ اُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ اِلَى صَدْرِهِ . وَحَسُنَ ٱلصَّوَابُ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا اِلَى دَرَكِ ٱلْمَرَامِ . كَاَنَّمَا جَمَعَ ٱلْكَلَامَ حَوْلَهُ حَتَّى اَنْتَقَى مِنْهُ وَاَنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَابَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذَلِكَ اَذْنَابًا لَا رُؤُسًا .

وَاَجْسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلَّهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَةٌ لَمْ تُرْتَنْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمَاعًا . وَٱلسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُسْنَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسَّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَالِفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ : تَجْمَعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَامًا مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ ٱلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَاتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ ٱلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ . وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ . (وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكْرِ . وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ . وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْاِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْاِبْرِيزِ . فِي مَعْنًى وَجِيزٍ . (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنَتْهُ بِعِيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْاِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفَطْبَسِ ٱلْاِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ . وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلْبَنَّاءُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ ٱلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ طَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ ٱلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رِيًّا فَٱمْتَتَحَتْ بِهِ سِقَاءَ يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطَتَ بِهِ مَعْنًى يَرْوِي مِنْ ظَمَإِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ) : ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرَّبَانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجِيبُهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكِمَاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَا بِسْهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضَ بَهْجَةُ إِيجَازِهِ . وَلَمْ تُكْشَفْ صَبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآذَابِ . وَأَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا ٱتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُسْتَعْجَمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يَسْتَبْهِمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَٱلْمُهْرِ ٱلَّذِي أَطْمَعَ أَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثِقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : ٱلْبَلِيغُ مَنْ أَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَأَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِٱخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَجَنَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْفَقَاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ أَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا بَاشَرَ دَوَاءَ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتَطْلَقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَأَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا أَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذًى ٱلْأَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذًى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ ٱلْكِنَانَةِ بِمِيلِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱجْلُ رَمَصَ ٱلْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ ٱلْيَقْظَةِ.
(ثُمَّ قَالَ) : اِجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ اَنْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرُّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً ٱلْمَقْصُودُ وَفِي ٱلْاِصْطِلَاحِ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا ٱللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَٱلْاِفْرَادُ وَٱلتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا ٱلْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ ٱلْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّتِي بِهَا يُطَابِقُ ٱللَّفْظُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

بِٱلْبَلَاغَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ ٱللُّغَوِيِّ اَوِ ٱلْعُرْفِيِّ اَوِ ٱلشَّرْعِيِّ . ثُمَّ تَجِدْ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَهُ اَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُولٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَٱلْمَعَانِي ٱلْاُولُ هِيَ مَدْلُولَاتُ ٱلتَّرَاكِيبِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ ٱلنَّحْوِ اَصْلَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي ٱلثَّوَانِي ٱلْاَغْرَاضُ ٱلَّتِي يُسَاقُ لَهَا ٱلْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي . كَرَدِّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعِ ٱلشَّكِّ مَثَلًا اِذَا قُلْنَا : اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ ٱلْقِيَامُ ٱلْمُؤَكَّدُ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي رَدُّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعُ ٱلشَّكِّ . وَاِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ ٱلْاِنْسَانِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِيرَادُهُ فِي ٱلطُّرُقِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَٱلْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ ٱلطُّرُقِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي لِكَوْنِ ٱللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ . فَدَلَالَةُ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ عَلَى ٱلثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى ٱلْمَعَانِي ٱلْاُولُ بِٱلْخُصُوصِيَّاتِ وَٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى وَبِٱلصُّوَرِ وَٱلْخَوَاصِّ وَٱلْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ اِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاُولِ وَكَذَا ٱلْمَعَانِيَ ٱلْاَوَّلَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ ٱلْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبِ لِكَوْنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ مَحَلَّ ٱلْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاَصْلِيَّةِ فِي ٱلنَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا ٱلذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا اِلَى ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلْاِفَادَةِ بِلَا اِخْلَالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَضَعُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَانَ يُقَالُ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. اَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلْإِتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ اَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١٠ و ١١ من علم الادب)

اَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ اَوْجُهٍ : (اَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً . (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا. وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ: (اَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا اَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ: ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ. فَاَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلْأَلْفَاظِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) مُجَانَبَةُ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَحْشِيِّ حَتَّى لَا يَجُبَّهُ سَمْعٌ وَلَا يَنْفِرَ مِنْهُ طَبْعٌ . (وَٱلثَّانِي) تَنَكُّبُ ٱللَّفْظِ ٱلْمُبْتَذَلِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَرْذَلِ حَتَّى لَا يَسْتَسْقِطَهُ خَاصِّيٌّ وَلَا يَنْبُوَ عَنْهُ فَهْمُ عَامِّيٍّ كَمَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي كِتَابِ ٱلْبَيَانِ : أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَرَ قَوْمًا أَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْكُتَّابِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدِ ٱلْتَمَسُوا مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحْشِيًّا وَلَا سَاقِطًا عَامِّيًّا . (وَٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ . أَمَّا ٱلْمُطَابَقَةُ فَهِيَ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ كَٱلْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ عَنْهَا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ فِي وَصِيَّتِهِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ : إِذَا لَمْ تَجِدِ ٱللَّفْظَةَ وَاقِعَةً مَوْقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً إِلَى مُسْتَقَرِّهَا وَلَا حَالَّةً فِي مَرْكَزِهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱلْقَرَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفْ إِخْتِيَارَ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذَلِكَ أَحَدٌ وَإِذَا أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فِيهِمَا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَٱزْرَى عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ فَوْقَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى يَلِيقُ بِبَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ إِمَّا لِعُرْفِ مُسْتَعْمَلٍ أَوْ لِٱتِّفَاقٍ مُسْتَحْسَنٍ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِيَ بِغَيْرِ تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ كَانَتْ نَافِرَةً عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ أَفْصَحَ وَأَوْضَحَ لِٱعْتِيَادِ مَا سِوَاهَا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : لَا يَكُونُ ٱلْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ أَسْبَقَ إِلَى فَهْمِكَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى سَمْعِكَ . وَأَمَّا مُعَاطَاةُ ٱلْإِعْرَابِ وَتَجَنُّبُ ٱللَّحْنِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي أَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَإِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتَجْلُوهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْإِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِٱخْتِصَارِ وَرِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ اَوْضَحَ وَاَفْصَحَ وَكَانَتِ ٱلْاِشَارَةُ اَبْيَنَ وَاَنْوَرَ كَانَتْ اَنْفَعَ وَاَنْجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ. ثُمَّ اَعْلَمْ حَفِظَكَ ٱللهُ اَنَّ حُكْمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكْمِ ٱلْاَلْفَاظِ لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مَبْسُوطَةٌ اِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ اِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَاَسْمَاءُ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مُحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ اَصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفْظٍ اَوْ غَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ اَشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ : اَوَّلُهَا ٱللَّفْظُ. ثُمَّ ٱلْاِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقْدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نُصْبَةً. وَٱلنُّصْبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْاَصْنَافِ وَلَا تُقْصِرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمْسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ اُخْتِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ اَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُمْلَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَعَنْ اَجْنَاسِهَا وَاَقْدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسِّرَارِ وَٱلضِّرَارِ وَعَمَّا يَكُونُ مِنْهَا لَهْوًا مُبْهَرِجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا. وَفِي نَحْوِ قَوْلِ اَبِي عُثْمَانَ (اِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِاَبِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلْعِجْلِيِّ :

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ اَفْنَتْهُ مَا قَرَتْ ... حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيْضُ ٱلْعُقُولِ اِذَا ٱنْجَلَتْ ... سَحَائِبُ مِنْهُ اُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : لَحْظَةُ ٱلْقَلْبِ اَسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَاَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اَعْمَاقِ اَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ. وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدُ

اِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كِوَاسٍ فِي اَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ ٱبْنِ بُرْد : بِمَا فُقْتَ اَهْلَ عَصْرِكَ وَسَبَقْتَ اَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ اَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِاَنِّي لَمْ اَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ اِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ اِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاَحْكَمْتُ سَيْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلِّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْاِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْاِحَاطَةُ بِاَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ اِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْاَشْعَارِ فَاِنَّهُمْ بِهِ اَعْنَى . وَاَعْلَمْ اَنَّ ٱلْاَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى اَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ اِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ اِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَاَوَّلَ ذَهَبَ اِلَى اَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تُصَلِّيَ فَٱدْخُلْ بَيْتَكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ هٰذا هُوَ ٱلْبَيْتُ وَٱلْبَابُ . وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ وَتَمْنَعُ أَنْ يَخْطُرَ بِهِ سِوَى أَمْرِ ٱلصَّلَاةِ . فَعَبَّرَ عَنِ ٱلْقَلْبِ بِٱلْبَيْتِ وَعَنْ مَنْعِ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّتِي تَخْطُرُ لَهُ بِإِغْلَاقِ ٱلْبَابِ . وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمَحْمُولُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا يَقَعُ فِي تَفْسِيرِهِ خِلَافٌ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمَعْدُولُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَقَعُ فِيهِ ٱلْخِلَافُ إِذْ بَابُ ٱلتَّأْوِيلِ غَيْرُ مَحْصُورٍ . وَٱلْعُلَمَاءُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هٰذَا فَإِنَّهُ قَدْ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وَجْهًا ضَعِيفًا مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ فَيَكْسُوهُ بِعِبَارَتِهِ قُوَّةً تُمَيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْقَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلسَّيْفَ بِضَارِبِهِ

إِنَّ ٱلسُّيُوفَ مَعَ ٱلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
تَلْقَى ٱلْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ مِثْلَ ٱلْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وَهٰذَا ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ ذِكْرِهِ هَاهُنَا يَرْجِعُ أَكْثَرُهُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ لِأَنَّهُ أَدَقُّ وَلَا يَخْلُو تَأْوِيلُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُحْتَمَلُ غَيْرُهُ . وَإِمَّا أَنْ يُحْتَمَلَ ٱلشَّيْءُ وَغَيْرُهُ . وَتِلْكَ ٱلْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدًّا أَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . (فَٱلْأَوَّلُ) يَقَعُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ ٱلْأَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي ٱلدِّقَّةِ وَٱللَّطَافَةِ مَجْرَى ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَإِنَّهُ قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ جِدًّا وَهُوَ مِنَ ٱلتَّأْوِيلَاتِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ . لِأَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدِّهِ اَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَغَيْرِهِ. مِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلاً تَسْتَحِي مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورًا :

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعِمَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ :

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا شَرِبْتُ بِمَا يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ. وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِاِنْ) ٱلشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ : لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ . وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِاِرْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ اَلْقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَاِنَّمَا كَلَامُ اَلْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ اَلْهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

مَا لَكَ تَعْنِي بِالْاَسِنَّةِ وَالْقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَاِنَّ هٰذَا بِالذَّمِّ اَشْبَهُ مِنْهُ بِالْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ . وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِاَنَّ اَلسَّعَادَةَ تَنَالُ اَلْخَامِلَ وَالْجَاهِدَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . وَاَكْثَرُ مَا كَانَ اَلْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا اَلْقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ اَلْكَافُورِيَّاتِ . . . وَهٰذَا اَلْقِسْمُ مِنَ اَلْكَلَامِ يُسَمَّى اَلْمُوَجَّهَ اَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ اَلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَاَتِّيهِ . (وَاَمَّا اَلْقِسْمُ اَلثَّالِثُ) فَاِنَّهُ يَكُونُ اَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ اَلْقِسْمِ اَلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ . لِاَنَّ اَلْقِسْمَ اَلْاَوَّلَ كَثِيرُ اَلْوُقُوعِ . وَاَلْقِسْمَ اَلثَّانِي قَلِيلُ اَلْوُقُوعِ . وَهٰذَا اَلْقِسْمُ اَلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا مِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَلَا تَقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ . فَاِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ اَلتَّاْوِيلِ اَحَدُهُمَا اَلْقَتْلُ اَلْحَقِيقِيُّ اَلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَاَلْآخَرُ هُوَ اَلْقَتْلُ اَلْمَجَازِيُّ وَهُوَ اَلْاِكْبَابُ عَلَى اَلْمَعَاصِي فَاِنَّ اَلْاِنْسَانَ اِذَا اَكَبَّ عَلَى اَلْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي اَلْآخِرَةِ . . . . وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا اَلنَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ اَفْلَاطُونَ اَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ اَلدَّوَاءِ دَوَاءٌ . فَذَهَبَ بَعْضُ اَلْاَطِبَّاءِ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ : اِنْ لَطُفَ اَلْمِزَاجُ وَانْتَهَى اِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ اَلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَالْاِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ . وَذَهَبَ آخَرُونَ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ بِالتَّرْكِ اَلْوَضْعَ اَيْ : وَضْعُ اَلدَّوَاءِ عَلَى اَلدَّاءِ دَوَاءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

اِلَى حِذْقِ ٱلطَّبِيبِ فِي اَوْقَاتِ عِلَاجِهِ . وَمِثْلُهُ فِي ٱلشِّعْرِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

اِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ ٱلْحِمَى فَقَدْ اَخَذَ ٱلْاَحْيَاءُ مِنْهَا قُبُورَهَا

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ وَٱلْآخَرُ ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ. اَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ) فَهُوَ اَنَّهُمْ خَذَلُوا ٱلْاَمْوَاتَ يُرِيدُ اَنَّهُمْ تَلَاقَوْا قِتَالَهُمْ وَقَوْمًا آخَرِينَ نَفَرَ ٱلْاَحْيَاءُ عَنْهُمْ وَاَسْلَمُوهُمْ اَوْ اِنَّهُمُ ٱسْتَنْجَدُوهُمْ فَلَمْ يُنْجِدُوهُمْ. وَاَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ) فَهُوَ اَنَّ لَهُمْ مَخَازِيَ وَفَضَائِحَ تُوجِبُ عَارًا وَشَنَارًا فَهُمْ يَعُدُّونَ بِهَا ٱلْاَحْيَاءَ وَيُلْصِقُونَهَا بِهِمْ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

بِٱلشِّعْرِ طُولٌ اِذَا ٱضْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ

فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَتَّسِعُ مَجَالُهُ بِمَدْحِكَ وَيَضِيقُ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . يُرِيدُ بِذٰلِكَ اَنَّ مَآثِرَهُ كَثِيرَةٌ وَمَآثِرَ غَيْرِهِ قَلِيلَةٌ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَكُونُ ذَا فَخْرٍ وَنَبَاهَةٍ بِمَدْحِكَ وَذَا خُمُولٍ بِمَدْحِ غَيْرِكَ . فَلَفْظَةُ ٱلطُّولِ : يُفْهَمُ مِنْهَا ضِدُّ ٱلْقِصَرِ وَيُفْهَمُ مِنْهَا ٱلْفَخْرُ مِنْ قَوْلِنَا : طَالَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ اَيْ فَخَرَ عَلَيْهِ . وَمِمَّا يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ قَوْلُ اَبِي كَبِيرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

وَهٰذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ سُرْعَةَ تَقَضِّي ٱلْاَوْقَاتِ مُدَّةَ ٱلْوِصَالِ . فَلَمَّا ٱنْقَضَى ٱلْوَصْلُ عَادَ ٱلدَّهْرُ اِلَى حَالَتِهِ فِي ٱلسُّكُونِ وَٱلْبُطْءِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ

ٱلدَّهرِ بِٱلنَّمَائِمِ وَٱلوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنقضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلوَصْلِ سكنُوا اَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ اِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ اَيْ اَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَوَّلُهَا (اَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهًا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ لَمْ يُرْضِهَا اَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِاَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِاَنَّ عَطَايَاهُ اَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ اَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ اِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ. وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ اَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَاِنَّمَا ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا اَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي اَشَرْتُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ اِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَاَحْمَةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلْبَسْ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا ٱلتَّرْجِيحِ وَٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ اَنَّ هُنَاكَ يُرَجَّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجَّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي ٱلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ اَنَّ صَاحِبَ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحَادِ اَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يُعْرَضُ اِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لِاَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ اَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ اَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ اِلَى ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا ٱتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ اَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱنْقِسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مَوَاضِعَ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (اَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ اِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ اِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجِيحُ اِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ اِمَّا اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي اَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي ٱلْآخَرِ . اَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا اَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ ٱلْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ اِلَى نَظَرٍ . (وَاَمَّا ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ) فَاِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكَانِ ٱلْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَٱلشَّيْئَانِ ٱلْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشَبَّهَيْنِ . . . .

(وَاَمَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) اِذَا كَانَا حَقِيقَتَيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْاَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَتَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْاَرْضِ . (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ اَرْجَحُ لِاَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا تُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْاَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ .

(وَاَمَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَدْ بَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا وَبَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ قَدِيمًا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمًا
فَعَلِمْنَا اَنْ لَيْسَ اِلَّا بِشَقِّ ٱلنَّفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمًا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَاِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَاِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِاَنَّهُ هُوَ ٱلدَّالُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . اَمَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَاِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِاَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ اَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَاِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَاَنَّهُ قَالَ : اَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْئَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَاَمَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعَدُّدِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُوءِ الِهِ وَاِكْثَارِهِ وَاِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا اِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلْاِسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى اِلَى كَيْفِيَّةِ اِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ اَعْظَمِ اَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِاَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: اِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِاِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ اَحَدٌ اِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . اِعْلَمْ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ اِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ . وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَاَوْ . وَغَرَضُنَا هَا هُنَا تَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يُفِيدُ اِلَّا ٱلْاِشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ اَشْرَكَتْ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْاِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِاِشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ اَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلْاِشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ اِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعُ حَالَةَ ٱلْاَوَّلِ عَسَاهُ يَعْرِفُ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْاَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلَا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَوْ قُلْتَ : (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَاَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحَكُ مِنْهُ . وَاِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ مَعْنَى اِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْاُخْرَى كَمَا اِذَا كَانَتْ كَالتَّوْكِيدِ لَهَا اَوْ كَالصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِاَنَّ ٱلتَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتِيهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ . فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللّٰهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِاَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ اَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْاِثْبَاتُ (بِاِنْ وَاِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . فَٱلْاِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى . (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلَا تَشْرِيكَ . وَمِنْ هَا هُنَا عَابُوا عَلَى اَبِي تَمَّامٍ قَوْلَهُ :

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ اَنَّ ٱلنَّوَى مُرٌّ وَاَنَّ اَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ بِهِمَا اَوْ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ عَنْهُمَا اَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلْاَخِيرُ

هُوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْعَطْفِ وَمَعْنَى ٱلْمُنَاسَبَةِ اَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو . اَوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلْعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَاِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَاِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْاَمْرَيْنِ . فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوهِّمَ اَنَّ ٱلثَّانِيَ رُجُوعٌ عَنِ ٱلْاَوَّلِ . وَاِذَا اَفَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلْاِجْتِمَاعَ اَزْدَادَ ٱلْاِسْتِدْرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ اَحْسَنْتَ وَاَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وَكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا اَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَاَنْ نَكُفَّ ٱلْاَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَاِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمِ وَاحِدٍ اَيْ لَا تَطْمَعُوا اَنْ تَرَوْا اِكْرَامَنَا اِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ اِهَانَتِكُمْ اِيَّانَا . وَاعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ يَجِبُ اِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِاخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ اِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْاَرْضِ قَالُوا : اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ . فَقَوْلُهُ : (اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ اِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ اَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ اِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِاَنَّهُمْ وَصَفُوا اَنْفُسَهُمْ بِاَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَاِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ اِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا مَنْزِلَتَهُ اِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا. فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غُمْرَةٍ صَدَقُوا وَلٰكِنْ غُمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ إِنَّهُ فِي غُمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ : فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ . أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ إِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ : أَقُولُ صَدَقُوا . أَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي . وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي أَنَّهُ مَسْئُولٌ . وَٱمْتِثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ : فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَإِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا أُخْرَى. فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) وَلَهُ أَحْوَالٌ : (ٱلْأُولَى) أَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ . وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ . وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافَهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ . وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ . قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ : مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ . إِذَا أَجْزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسَنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ اَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) اَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ مَاضِيًا اَوْ مُضَارِعًا . اَمَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْاِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ اَوْ بِاَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجَلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَاَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ اَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَاِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكَ هِزَّةٌ كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

اِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ اِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ . وَاَمَّا ٱلْمُضَارِعُ فَاِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) اَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ اَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ اِذَا وَقَعَ حَالًا . وَاِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِاَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَابُ وَجَازَ اِثْبَاتُهَا لِاَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَاِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْاِسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَقُودُهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : اَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ. فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي اَحَلَّنَا . وَٱلْاِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : اَفَلَا يَرَوْنَ اَلَّا يَرْجِعُ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَشَبَّهُوا بِهِ ٱلْفِعْلَ

ٱلْمَاضِيَ فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزهِ بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

اَمَّا (اِنَّ) فَلَهَا فَوَائِدُ : (اَلْاُولى) اَنَّهَا تَرْبِطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْاُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَانَّ ٱلْكَلَامَيْنِ اُفْرِغَا اِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ اَسْقَطْتَهَا كَانَ ٱلثَّانِي نَائِبًا عَنِ ٱلْاَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (اَلثَّانِيَةُ) اَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (اِنَّ) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (اَلثَّالِثَةُ) اَنَّهَا تُهَيِّئُ ٱلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِاَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ ٱلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلَكِنَّ ذِكْرَهَا اَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

اِنَّ دَهْرًا يُلَفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْاِحْسَانِ

(اَلرَّابِعَةُ) اَنَّهَا تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَّاسُ اَلَبُّوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتَ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمْرًا . اَيْ لَنَا . قَالَ ٱلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًّا وَاِنَّ مُرْتَحَلًا وَاِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلًا

(الخامسة) قال المبرد اذا قلت : ان عبد الله قائم . فهو جواب عن سوء السائل . فاذا قلت : ان عبد الله لقائم . فهو جواب عن انكار منكر لقيامه سواء كان المنكر هو السائل او الحاضرين (واما انما) فتارة تجيء للحصر بمعنى ان هذا الحكم لا يوجد في غير المذكور وهو بمنزلة (ليس الا) كقوله : انما يستجيب الذين يسمعون . وقوله : انما تنذر من اتبع الذكر . وقوله : انما انت منذر من يخشاها . وتارة تجيء لبيان ان هذا الامر ظاهر عند كل احد سواء كان كذلك او في زعم المتكلم . ومنه قول الشاعر :

انما مصعب شهاب من الله م تجلت من وجهه الظلماء

مدعيا ان ذلك مما لا ينكره احد من الناس . (فائدة) اذا دخل (ما والا) على الجملة المشتملة على المنصوب كان المقصود بالذكر ما اتصل (بالا) متاخرا عنه . فاذا قلت : ما ضرب عمرا الا زيد . فالمقصود المرفوع . واذا قلت : ما ضرب زيد الا عمرا . فالمقصود المنصوب . واذا قلت : ما ضرب زيد الا عمرا . فالاختصاص بالضارب . واذا قلت : ما ضرب الا زيدا عمرو . فالاختصاص بالمضروب . واذا قلت : لم اكس الا زيدا جبة . فالمعنى تخصيص كسوة الجبة بين الناس بزيد . وكذلك الحكم حيث يكون يدل احد المفعولين جارا ومجرورا كقول السيد الحميري :

لو خير المنبر فرسانه ما اختار الا منكم فارسا

وكذلك حكم المبتدإ والخبر والفعل والفاعل كقولك : ما

زَيْدٌ اِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ اِلَّا زَيْدٌ. وَاَمَّا (اِنَّمَا) فَالْاِخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ الْمُتَاَخِّرِ. فَاِذَا قُلْتَ: اِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدًا عَمْرٌو. فَالْاِخْتِصَاصُ فِي الضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (اِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فَالْغَرَضُ بَيَانُ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ اَنَّ الْخَاشِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ الْمَرْفُوعُ لَصَارَ الْمَقْصُودُ بَيَانَ الْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَالْاَوَّلُ اَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

اَنَا الرَّاشِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَاِنَّمَا يُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ اَنَا اَوْ مِثْلِي

فَاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَحْصُرَ الْمُدَافِعَ بِاَنَّهُ هُوَ لَا الْمُدَافَعُ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: اِنَّمَا اَنَا اُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخْصِيصُ اِلَى الْمُدَافِعِ عَنْهُ. اِذَا ادْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (اِنَّمَا) فَاِنْ قَدَّمْتَ الْخَبَرَ فَالْاِخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَاِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَاِذَا قُلْتَ: اِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَالْاِخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ اَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَاِنْ قُلْتَ: اَنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَالْاِخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ اَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ النَّفْيِ اِمَّا مُتَاَخِّرًا كَقَوْلِكَ: اِنَّمَا يَجِيءُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ اَبِيدٌ:

وَاِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ اِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وَاِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَاِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَا هُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (اِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ اَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَاِذَا ادْخَلْتَهَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي الْجَائِيِّ اَنَّهُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَاعْلَمْ اَنَّ اَقْوَى مَا يَكُونُ اِنَّمَا اِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِالْكَلَامِ الَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰكِنَّ ٱلتَّعْرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا ٱنْقَطَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . مِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدٌ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتْلَ ٱلْخَارِجِيِّ هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِيهِمْ . وَاِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ قَتْلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي اَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ وُقُوعُ ٱلْقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ ٱلْمُخْبِرُ ذِكْرَ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِاَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه) . وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ : (اَلْاَوَّلُ ٱلْاِسْتِفْهَامُ) فَاِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْفِعْلِ وَقُلْتَ : اَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ ٱلشَّكُّ فِي وُجُودِ ٱلْفِعْلِ مُحَقَّقًا وَٱلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ ٱلْفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ ٱلنَّكِرَةِ . فَاِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَاِنَّ ٱلْمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ ٱلْمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَاِذَا قُلْتَ : اَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلْحُكْمِ بِوُجُودِ ٱلْمَجِيءِ مِنْ اِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ ٱلْخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتَ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتَ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ ٱلْاِسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْاِنْكَارِ : وَهُوَ اِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَٱلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِاٰلِهَتِنَا . وَاِمَّا لِاِنْكَارِ اَنَّهُ ٱلْفَاعِلُ مَعَ تَحْقِيقِ ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ ٱنْتَحَلَ شِعْرًا : اَاَنْتَ قُلْتَ هٰذَا . وَاِنْ كَانَ ٱلْفِعْلُ مُضَارِعًا فَاِنْ اَدْخَلْتَ حَرْفَ ٱلْاِسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ اِمَّا لِاِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : اَنُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِاِنْكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِاِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَاَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ ٱلْحَقَّ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَ اَتْرُكُ اِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ اِنِّي اِذًا لَلَئِيمُ

اَوْ لِتَقْدِيمِ اَلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ اَلْخَطَرَ : اَتَرْكَبُ فِي هٰذَا اَلْوَقْتِ . وَاِنْ اَدْخَلْتَهُ عَلَى اَلْاِسْمِ فَهُوَ لِاِنْكَارِ صُدُورِ اَلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ اَلْفَاعِلِ اِمَّا لِاِسْتِحْقَارٍ كَقَوْلِكَ : اَ اَنْتَ تُغْنِي . اَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : اَهُوَ يَسْاَلُ اَلنَّاسَ . اَوْ لِلْمُبَالَغَةِ اِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : اَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَاِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : اَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ اِسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : افَاَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَوْ تَهْدِي اَلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ اِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى اَلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : اَغَيْرَ اَللّٰهِ اَتَّخِذُ وَلِيًّا وَ اَغَيْرَ اَللّٰهِ تَدْعُونَ . وَاَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى اَنَّ اَلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةٍ اَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي اَلتَّقْدِيمِ وَاَلتَّاْخِيرِ فِي اَلنَّفْيِ) اِذَا اَدْخَلْتَ اَلنَّفْيَ عَلَى اَلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَاِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى اَلْاِسْمِ فَقُلْتَ : مَا اَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا اَقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ اَلْخِطَابِ كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ اَلْمُتَنَبِّي :

وَمَا اَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا اَلشِّعْرَ كُلَّهُ وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ اَلْجَارِّ وَاَلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ اَلْمَفْعُولِ) . فَاِذَا قُلْتَ : مَا اَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ اَنْ يَكُونَ قَدْ اَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَاِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا اَمَرْتُكَ . اَقْتَضَاهُ . وَاِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ اَلْعُمُومِ عَلَى اَلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ اَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلْإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا . وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ : لَمْ أَفْعَلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلْإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا. (ٱلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقَدَّمَ فِي ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلِٱسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَأَنَا فَعَلْتُ . فَٱلْقَصْدُ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : أَنَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلِٱنْفِرَادَ بِذٰلِكَ . أَوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ : هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ أَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دَرَنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا : (زَيْدٌ) . فَقَدْ أَشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَبْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : أَنَا أُعْطِيكَ . أَنَا أَكْفِيكَ . أَنَا أَقُومُ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدُ أَنْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : أَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . أَنْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ أَحَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلْأَبْصَارَ لَا تَعْمَى وَإِنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَنْفِيِّ . فَإِذَا قُلْتَ . أَنْتَ لَا تُحْسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ تَقُولَ : لَا تُحْسِنُ هٰذَا . فَٱلْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ دَعْوَى بِأَنَّهُ يُحْسِنُ . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقْدِيمُ ٱلِٱسْمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحْوِ قَوْلِهِ :

يَاعَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ ٱلدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلْحَقَّ وَٱلْحُرْمَةَ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقْصِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ سِوَى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ وَجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلْمَعْنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلْحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلْقِيَاسِ أَنْ يَفْعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيْفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَافَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ مُحْكَمُ (غَيْرٍ) إِذَا سَلَكَ فِيهِ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

غَيْرِي بِكَثْرَ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا نَجَعُوا

أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخَدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدَّمْ (مِثْلًا وَغَيْرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرِدْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقْدِيمُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ أَشَدَّ كَقَوْلِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلْأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ أَلْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَوْ

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: وَتُغَشِّي وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ . فَإِنَّهُ أَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ . وَهُوَ قَوْلُهُ : إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ : مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ أَعْرَفَ أَوْ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ قَامَ . وَقَامَ زَيْدٌ . وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَإِنَّ ٱلِٱسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ . (ٱلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ . فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَعْرَفَ فَإِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ أَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ أَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ . (ٱلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَأَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلِٱسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ . (ٱلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ . (ٱلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ . (ٱلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ إِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ . أَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ : وَإِذَا ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ . أَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ . جَازَ . وَإِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا . (ٱلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي إِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى . وَأَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا . فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ . (ٱلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا . وَكَرِيمٌ أَبًا . وَتَصَبَّبَ عَرَقًا . وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَإِنَّ

زَيْدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيْدا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . إِذَا رَفَعْتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ اضْمَرْتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْئَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضًا)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُتْرَكُ ذِكْرُ مَفْعُولَاتِهَا عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُتْرَكُ مَفْعُولُهُ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا وَيُجْعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ . وَٱلْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ ٱلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفْعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضَرٌّ وَنَفْعٌ . وَبِٱلْجُمْلَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعْلَ فَإِنْ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُصُ ٱلْغَرَضَ . أَلَا تُرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعْطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ جِنْسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْإِعْطَاءُ لَا بَيَانَ حَالِ كَوْنِهِ مُعْطِيًا . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مَعْلُومٌ إِلَّا أَنَّهُ يُحْذَفُ مِنَ ٱللَّفْظِ لِأَغْرَاضٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانُ

ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ ٱزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَأَجْأَوْا ... إِلَى جُحُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

وَٱلْأَصْلُ أَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَأَجْأَوْنَا وَأَدْفَأَتْنَا وَأَظَلَّتْنَا فَحُذِفَ ٱلْمَفْعُولُ ٱلْمُعَيَّنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَأَنَّهُ قَدْ أُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ أَضَافَ إِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ إِلَّا أَنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ إِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

ٱلْمَعْنَى أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَأَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ أَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِكَ إِيذَانًا بِأَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيَهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ أَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : أَصْغَيْتُ إِلَيْكَ . أَيْ أُذُنِي . وَأَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . أَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِلَ وَصْفًا لَهُ

اِلَى حَيْثُ يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ اَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ اِلَّا لَهُ سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ كَذٰلِكَ اَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى الشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا الْغَرَضَ. وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : مَا مِنِ اسْمٍ يُحْذَفُ فِي الْحَالَةِ يَنْبَغِي اَنْ يُحْذَفَ فِيهَا اِلَّا وَحَذْفُهُ اَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذْفِ الْمُبْتَدَإِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

لَا يُبْعِدِ اللّٰهُ التَّلَبُّبَ م وَالْغَارَاتِ اِذْ قَالَ الْخَمِيسُ نَعَمْ

اَيْ هٰذِهِ نَعَمْ . قَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : وَمِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ الْمُبْتَدَإِ بِالْقَطْعِ وَالْاِسْتِئْنَافِ اَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ الرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَ اَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ الْكَلَامَ الْاَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ اِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ اَتَوْا فِي اَكْثَرِ الْاَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَإٍ مِثَالُ ذٰلِكَ :

وَعَلِمْتُ اَنِّي يَوْمَ ذَا لَكَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا
قَوْمٌ اِذَا لَبِسُوا الْحَدِيدَ م تَنَمَّرُوا حَلَفًا وَقِدَّا

وَقَوْلُ الْحُطَيْئَةِ :

هُمُ جَالُوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا
اُسَاةُ مَكَارِمٍ وَاُسَاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمُ مِنَ الْكَلَبِ الشِّفَاءُ

وَاَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ حَذْفِ الْخَبَرِ قَوْلُهُ : لَوْلَا اَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ اَيْ لَوْلَا اَنْتُمْ مُضِلُّونَا . وَقَوْلُ عُمَرَ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ . اَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ اَوْ مُفْتٍ . وَمِمَّا يَحْتَمِلُ الْاَمْرَيْنِ قَوْلُهُ : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . وَقَوْلُهُ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

اَلْاِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ التَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ : اَكْرَمَنِي وَاَكْرَمْتُ عَبْدَ اللّٰهِ اَيْ

اَكْرَمَني عَبْدُاللهِ وَاَكْرَمْتُ عَبْدَ اللهِ. وَمِمَّا يُشْبِهُ ذٰلِكَ مَفْعُولُ ٱلْمَشِيئَةِ اِذَا جَاءَتْ بَعْدَ (لو). فَاِنْ كَانَ مَفْعُولُهَا عَظِيمًا اَوْ غَرِيبًا فَالْاَوْلَى ذِكْرُهُ كَقَوْلِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ اَنْ اَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلٰكِنْ سَاحَةُ ٱلصَّبْرِ اَوْسَعُ

فَاِنَّ بُكَاءَ ٱلْاِنْسَانِ دَمًا عَجِيبٌ. وَاِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَالْاَوْلَى حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ: وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى. وَٱلتَّقْدِيرُ: وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ اَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى لَجَمَعَهُمْ. وَاعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ تُتْرَكُ ٱلْكِنَايَةُ اِلَى ٱلتَّصْرِيحِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ ٱلْفَخَامَةِ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي ٱلسُّؤْ دَدِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْمَكَارِمِ مِثْلَا

ٱلْمَعْنَى قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلًا. ثُمَّ حُذِفَ لِاَنَّ هٰذَا ٱلْمَدْحَ اِنَّمَا يَتِمُّ بِنَفْيِ ٱلْمِثْلِ فَلَوْ قَالَ: قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلًا فِي ٱلسُّؤْدُدِ وَٱلْمَجْدِ فَلَمْ نَجِدْ لَكَانَ قَدْ اَوْقَعَ نَفْيَ ٱلْوُجُودِ عَلَى ضَمِيرِ (ٱلْمِثْلِ) فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ مَا اِذَا اَوْقَعَهُ عَلَى صَرِيحِ ٱلْمِثْلِ. فَاِنَّ ٱلْكِنَايَةَ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ ٱلصَّرِيحِ. وَعَلَى ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ:

لَا اَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ نَغَّصَ ٱلْمَوْتُ ذَا ٱلْغِنَى وَٱلْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

اِنَّ ٱلْكَلِمَ جَمْعُ كَلِمَةٍ. وَٱلْجَوَامِعُ جَمْعُ جَامِعَةٍ. وَٱلْجَامِعَةُ ٱسْمُ فَاعِلَةٍ مِنْ جَمَعَتْ فَهِيَ جَامِعَةٌ. كَمَا يُقَالُ فِي ٱلْمُذَكَّرِ جَمَعَ فَهُوَ جَامِعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ. وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ. وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ.

فِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قَفًا مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ
سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى أَبْتَرَهُ وَطَنُ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ: (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ تَمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ: (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ. وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عَلَيْهَا يَصِفُ بِذٰلِكَ عَدَمَ اِحْتِفَالِهِ بِٱلْفَوَادِحِ وَقِلَّةَ مُبَالَاتِهِ بِٱلْخُطُوبِ ٱلَّتِي تُحْدِثُ اَفْكَارًا تَسْتَغْرِقُ ٱلْقُلُوبَ وَهٰذِهِ عِبَارَةٌ عَجِيبَةٌ لَا يُؤْتَى بِمِثْلِهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا . (وَاَمَّا) مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ فَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللّٰهُ اَوْطَارًا لَنَا وَمَآرِبًا ... تَقَطَّعَ مِنْ اَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالٍ تُنَسِّينِي ٱللَّيَالِي حِسَابَهَا ... بِلَهْنِيَةٍ اَقْضِي بِهَا ٱلْحَوْلَ اَجْمَعَا

سِوَى عِزَّةٍ لَا اَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ ... وَاَعْمَلُ فِيهِ ٱللَّهْوَ مَرْاًى وَمَسْمَعَا

فَقَوْلُهُ : (لَا اَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ اَيْ اِنِّي قَدْ شُغِلْتُ بِٱللَّذَّاتِ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱللَّيَالِي وَٱلْاَيَّامِ وَلَوْ وَصَفَ ٱشْتِغَالَهُ بِٱللَّذَّاتِ مَهْمَا وَصَفَ لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (لَا اَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ) . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) مِنْ جَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ فَٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْاِيجَازُ ٱلَّذِي يُدَلُّ بِهِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ اَيْ تَكُونُ ٱلْاَلْفَاظُ جَامِعَةً لِلْمَعَانِي ٱلْمَقْصُودَةِ عَلَى اِيجَازِهَا وَاخْتِصَارِهَا . وَسَيَأْتِي فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَمَقْنَعٌ . (فَاِنْ قِيلَ) : فَمَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ ذَكَرْتَهُمَا فَاِنَّهُمَا بِٱلنَّظَرِ سَوَاءٌ . (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ) : اِنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِاَلْفَاظٍ دَالَّةٍ عَلَى مَعْنًى مِنْ غَيْرِ اَنْ تَزِيدَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَلَا يُشْتَرَطُ فِي تِلْكَ ٱلْاَلْفَاظِ اَنَّهَا لَا نَظِيرَ لَهَا فَاِنَّهَا تَكُونُ قَدِ ٱتَّصَفَتْ بِوَصْفٍ آخَرَ خَارِجٍ عَنْ وَصْفِ ٱلْاِيجَازِ . وَحِينَئِذٍ يَكُونُ اِيجَازًا اَوْ زِيَادَةً . وَاَمَّا هٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ فَاِنَّهُ اَلْفَاظٌ اَفْرَادٌ فِي حُسْنِهَا لَا نَظِيرَ لَهَا . فَتَارَةً تَكُونُ مُوجَزَةً وَتَارَةً لَا تَكُونُ

مُوجَزَةً . وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ مِنْهَا ٱلْإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوْجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفْظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحْسَنُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ غَيْرُ ٱلْآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

ٱلْإِنْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلْمَاءِ وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ وَٱلْمَعْنَوِيِّ بَسِيطًا مَفْهُومًا دَقِيقَ ٱلْأَلْفَاظِ جَلِيلَ ٱلْمَعْنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلْمَاءِ ٱلْمُنْسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوْقِ وَتَوَقُّدِ ٱلْفِكْرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلْإِنْشَاءِ وَحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظْهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيْرِهِ مِنْ نَفْسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلْمَيْدَانِ مَا أَثْقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجْمَعَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فَإِنَّهُمْ قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فَقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

ٱلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدْ ٱطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَبِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنْظِمُهَا فِي سِلْكٍ . وَمِثَالُهُ قَوْلُ ٱلْجَاحِظِ : جَنَّبَكَ ٱللهُ ٱلشُّبْهَةَ وَعَصَمَكَ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلْمَعْرُوفِ نَسَبًا وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلصِّدْقِ سَبَبًا . وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ لِلنُّعْمَانِ : يُفَاخِرُكَ ٱبْنُ أَبِي جَفْنَةٍ وَإِنَّ لَقَفَاكَ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِهِ وَلَشِمَالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ وَلَأَخْمَصُكَ خَيْرٌ مِنْ رَأْسِهِ وَلَخَطَأُكَ خَيْرٌ مِنْ صَوَابِهِ وَلَخَدَمُكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ . وَهٰذَا ٱلنَّظْمُ لَا يَسْتَحِقُّ ٱلْفَضْلَ إِلَّا بِسَلَامَةِ مَعْنَاهُ وَسَلَامَةِ أَلْفَاظِهِ إِذْ لَيْسَ فِيهِ مَعْنًى دَقِيقٌ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِثَاقِبِ ٱلْفِكْرِ . وَرُبَّمَا ظُنَّ بِٱلْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ وَلَا يَكُونُ مِنْهُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ تَكُونَ ٱلْجُمَلُ ٱلْمَذْكُورَةُ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ قُوَّةُ ٱلطَّبْعِ وَجَوْدَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَٱسْتِقَامَةُ ٱلذِّهْنِ . ثُمَّ لَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَابِ قَانُونٌ يُحْفَظُ فَإِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى وُجُوهٍ شَتَّى :

(فَمِنْهَا ٱلْإِيجَازُ) وَهُوَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنِ ٱلْغَرَضِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) إِيجَازُ قِصَرٍ وَهُوَ تَقْلِيلُ ٱللَّفْظِ وَتَكْثِيرُ ٱلْمَعْنَى . (وَٱلثَّانِي) إِيجَازُ حَذْفٍ وَهُوَ ٱلِٱسْتِغْنَاءُ بِٱلْمَذْكُورِ عَمَّا لَمْ يُذْكَرْ . (وَمِنْهَا ٱلتَّأْكِيدُ) وَهُوَ تَقْوِيَةُ ٱلْمَعْنَى وَتَقْرِيرُهُ إِمَّا بِإِظْهَارِ ٱلْبُرْهَانِ كَقَوْلِ قَابُوسَ :

يَا ذَا ٱلَّذِي بِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ عَيَّرَنَا ... هَلْ عَانَدَ ٱلدَّهْرَ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ
أَمَا تَرَى ٱلْبَحْرَ يَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ ٱلدُّرَرُ
وَفِي ٱلسَّمَاءِ نُجُومٌ غَيْرُ ذِي عَدَدٍ ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(أَوْ بِٱلْعَزِيمَةِ) كَقَوْلِهِ : فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ . (أَوْ بِٱلتَّكْرَارِ) كَقَوْلِهِمْ : ٱللهَ ٱللهَ وَٱلْأَسَدَ ٱلْأَسَدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وعرر الخصائص للوطواط بتصرّف)

(راجع صفحة ٢٧ و ٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اِسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ اَلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ اَلْحُجُبَ دُونَ اَلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ اَلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ اَلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ اَلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ اَلْاَمْرِ وَاَلْغَايَةَ اَلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا اَلْقَائِلُ وَاَلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ اَلْفَهْمُ وَاَلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ اَلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ اَلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ اَلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ اَلْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَلْبَرْمَكِيِّ : مَا اَلْبَيَانُ . قَالَ : اَنْ يَكُونَ اَلْاِسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ اَلشَّرِكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِاَلْفِكْرَةِ وَيَكُونُ سَلِيمًا مِنَ اَلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ اَلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ اَلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ اَلتَّاْوِيلِ. وَقَالُوا : اَلْبَيَانُ بَصَرٌ وَاَلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ اَلْعِلْمَ بَصَرٌ وَاَلْجَهْلَ عَمًى وَاَلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ اَلْعِلْمِ وَاَلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ اَلْجَهْلِ. وَقَالُوا : حَيَاةُ اَلْمُرُوءَةِ اَلصِّدْقُ وَحَيَاةُ اَلرُّوحِ اَلْعَفَافُ وَحَيَاةُ اَلْحِلْمِ اَلْعِلْمُ وَحَيَاةُ اَلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلنَّوَّامِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلْقُنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْتَبِرِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْافَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلْاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعَلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَأَقْسَامِ ٱلْاسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّةَ وَٱلْاِلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلْاسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا

البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ . فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا . فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ . فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا . وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ . وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ . أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ . وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : قَالَ ٱلْأَسَدُ . قَالَ ٱلثَّعْلَبُ . فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ : إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ . وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذَا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذَٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلُّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذَٰلِكَ أَنَّا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذَٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذَٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذَٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذَٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذَٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذَٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَالْآخَرُ وَضْعِيٌّ . (اَمَّا النَّظَرِيُّ) فَهُوَ اَنَّ الْاَلْفَاظَ اِنَّمَا جُعِلَتْ اَدِلَّةً عَلَى اِفْهَامِ الْمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ صَحِيحًا لَكَانَ الْبَحْرُ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا الْمَاءِ الْعَظِيمِ الْمِلْحِ وَعَلَى الرَّجُلِ الْجَوَادِ بِالْاِشْتِرَاكِ . وَكَذٰلِكَ الشَّمْسُ اَيْضًا فَاِنَّهَا كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى هٰذَا الْكَوْكَبِ الْعَظِيمِ الْكَثِيرِ الضَّوْءِ وَعَلَى هٰذَا الْوَجْهِ الْمَلِيحِ بِالْاِشْتِرَاكِ . وَحِينَئِذٍ فَاِذَا وَرَدَ اَحَدُ هٰذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفْهَمُ الْمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ احَدِ الْمَعْنَيَيْنِ الْمُشْتَرَكَيْنِ الْمُنْدَرِجَيْنِ تَحْتَهُ وَنَحْنُ نَرَى الْاَمْرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَاِنَّا اِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ اَوْ بَحْرٌ . وَاَطْلَقْنَا الْقَوْلَ لَا يُفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجْهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ . وَاِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ ذٰلِكَ الْكَوْكَبُ الْمَعْلُومُ وَذٰلِكَ الْمَاءُ الْمَعْلُومُ لَا غَيْرُ فَبَطَلَ اِذًا مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَاَوْضَحْنَاهُ . (فَاِنْ قُلْتَ) : اِنَّ الْعُرْفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ فَاِنَّ مِنَ الْاَلْفَاظِ مَا اِذَا اُطْلِقَ لَمْ يَذْهَبِ الْفَهْمُ مِنْهُ اِلَّا اِلَى الْمَجَازِ دُونَ الْحَقِيقَةِ . (قُلْتُ فِي الْجَوَابِ) : هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ اِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ الْاَمْرُ كَمَا ذَهَبُوا اِلَيْهِ . لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ اِطْلَاقُ اللَّفْظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ فَهٰؤُلَاءِ لَا يَفْهَمُونَ اِلَّا الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّ . لِاَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا اَصْلَ وَضْعِ الْكَلِمَةِ . وَاَمَّا خَاصَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ اَصْلَ الْوَضْعِ فَاِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ عِنْدَ اِطْلَاقِ اللَّفْظِ اِلَّا الْحَقِيقَةَ لَا غَيْرُ . . . (وَاَمَّا الْوَجْهُ الْوَضْعِيُّ) فَهُوَ اَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ اِلَى اَصْلِ اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ وَضْعُ الْاَسْمَاءِ عَلَى الْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا اَنَّ الْوَجْهَ الْمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا وَلَا اَنَّ الرَّجُلَ الْجَوَادَ يُسَمَّى بَحْرًا . وَاِنَّمَا اَهْلُ

ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ تَوَسَّعُوا فِي ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ فَنَقَلُوا ٱلْحَقِيقَةَ إِلَى ٱلْمَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ فِي ٱلتَّوَسُّعَاتِ ٱلْمَجَازِيَّةِ . هٰذَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ قَدِ ٱخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ ٱلْفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . .

وَوَاضِعُ ٱللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ أَنَّ مِنَ ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ أَهْلِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ لَمَا ٱخْتَرَعَهُ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ فَهُوَ أَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرِ . أَلَا تَرَى إِذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ . صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ) . لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي بَعْضِ ٱلْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ إِذِ ٱلْمُرَادُ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ ٱلسُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلرَّبْعَ وَٱلطَّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْمَجَازِ إِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ إِذِ ٱلْمَجَازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا إِلَى حَالَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَجَازَ أَوْلَى بِٱلِٱسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ إِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عِيَانًا . أَلَا تُرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَإِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى أَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَإِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلِٱفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ أَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ أَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ أَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى إِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجِّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ . يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه. وحد الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة على سبيل النقل للابانة. وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها. وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: وتفسير هذه الجملة ان قوله مثلا: (واشتعل الرأس شيبا). استعارة لان الاشتعال للنار ولم توضع في اصل اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه. لان الشيب لما كان نافذا في الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله الى غير حالته المتقدمة. فهذا من نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولا بد ان يكون اوضح من الحقيقة لاجل التشبيه العارض فيها. لان الحقيقة لو قامت مقامها لكانت اولى بها لانها الاصل وليس يخفى على المتأمل ان قوله: (واشتعل الرأس شيبا). ابلغ من: كثر شيب الرأس. وهو حقيقة هذا المعنى. وقوله: (يوم يكشف عن ساق). احسن وابلغ في ما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الامر. وان كان المعنيان واحدا. الا ترى انك تقول لمن يحتاج الى الجد في امره: شمر عن ساقك. فيكون هذا القول منك ازكى في نفسه من قولك: جد في امرك. وقال دريد بن الصمة:

كبيت الازار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع انجد

وَقَالَ ٱلْهُذَلِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُدُوِّهِ ٱشْمَرْ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلْٱسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ ٱصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِٱشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَأَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ أَنَّنَا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَأَيْتُ أَسَدًا . وَأَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْأَسَدُ . فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ أَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَأَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْأَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْأَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَأُوَضِّحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْأَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ تَشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَيْ كَٱلْأَسَدِ . فَأَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا أُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي أُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِذَا اُظْهِرَت ازَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ ... فَٱلْفَرْقُ اِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلْاِسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ يَحْسُنُ اِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلْاِسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلْاِسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ اِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلْاِسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اِسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلْاِسْتِعَارَةُ اِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا اِشَارَةً اِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهِمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ ٱللَّطَفُ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ ٱسْتِعَارَاتٍ اِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِاِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلْاِسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَاعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْاَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْاِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلْاِسْتِقَامَةِ هُوَ اِرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ

(عن صناعة الترسل ايضًا)

اَلْاَعلامْ لَا يَدْخُلها اَلْاِسْتِعارَةْ لِمَا تقدَّمَ فِي اَلْمَجَازِ . وَاَمَّا اَلْفِعْلُ فَالْاِسْتِعارَةْ تَقَعْ اَوَّلًا فِي اَلْمَصْدَرِ ثُمَّ تَقَعْ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي اَلْفِعْلِ . فَاِذَا قُلتَ : نَطَقَتِ اَلْحالْ بِكَذَا . فهذا اِنما يَصِحُّ لِاَنَّكَ وَجَدتَّ اَلْحالَ شَابِهَةً لِلنُّطْقِ فِي اَلدَّلَالَةِ عَلَى اَلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ اَسْتَعَرْتَ اَلنُّطْقَ لِتِلْكَ اَلْحالَةِ ثُمَّ نَقَلْتَهُ اِلَى اَلْفِعْلِ . وَاَلْاَسْمَاءُ اَلْمُشْتَقَّةْ فِي ذٰلِكَ كَالْفِعْلِ . فَظَهَرَ اَنَّ اَلْاِسْتِعارَةْ اِنَّمَا تقعْ وُقُوعًا اَوَّلِيًا فِي اَسْمَاءِ اَلْاَجْنَاسِ . ثُمَّ اَلْفِعْلُ اِذَا كَانَ مُسْتَعارًا فَاَسْتِعارَتُهُ اِمَّا مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَوْلِهِ : نَطَقَتِ اَلْحالُ بِكَذَا اَوْ لَعِبَتْ بِهِ اَلْهُمُومْ . وَكَقَوْلِ جَرِيرٍ :

يَخْشَى اَلرَّوَامِسَ رَبْعُهَا فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ اَلْبِلَى وَتُمِيتُهُ اَلْاَمْطَارُ

اَوْ مِنْ جِهَةِ مَفْعُولِهِ كَقَوْلِ اَبْنِ اَلْمُعْتَزّ :

جُمِعَ اَلْحَقُّ لَنَا فِي اِمَامٍ ... قَتَلَ اَلْجَوْرَ وَاَحْيَا اَلسَّمَاحَا

اَوْ مِنْ جِهَةِ اَلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ اَلْبَرْقُ يَخْطَفُ اَبْصَارَهُمْ . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرْشِيحُ اَلْاِسْتِعارَةِ وَتَجْرِيدُهَا . اَمَّا تَرْشِيحُهَا فَهُوَ اَنْ تَنْظُرَ فِيهَا اِلَى اَلْمُسْتَعارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُولِيَهُ مَا تَسْتَدْعِيهِ وَتَضُمَّ اِلَيْهِ مَا تَقْتَضِيهِ كَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ :

وَصَدْرٍ اَزَاحَ اَللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ اَلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

اَلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ اَلْاِزَاحَةُ مَنْظُورٌ اِلَيْهِ فِي لَفْظِ اَلْعَازِبِ . وَاَمَا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا اِلَيْهِ كَقَوْلِهِ : فَاَذَاقَهَا اَللّٰهُ لِبَاسَ اَلْجُوعِ وَاَلْخَوْفِ . فَاِنَّ اَلْاِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ اَثَرِ اَلضَّرَرِ وَاَلْاَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ اَلْمُرِّ . اَلشَّبَعُ وَاَللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَاَنَّهُ قَالَ : فَاَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ اَلَمِ اَلْجُوعِ وَاَلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى اَسَدٍ شَاكِي اَلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لَبَدٌ اَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ اِلَى اَلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى اَسَدٍ دَامِي اَوْ دَامِي اَلْبَرَاثِنِ مَثَلًا . وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ اَلْبَيْتِ اِلَى اَلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ اَلرِّدَاءِ اِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ اَلْمَالِ

اِسْتَعَارَ اَلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِاَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ اَلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِالْغَمْرِ اَلَّذِي هُوَ وَصْفُ اَلْمَعْرُوفِ وَاَلنَّوَالِ لَا وَصْفُ اَلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ اَلْاِسْتِعَارَةُ بِاَلْكِنَايَةِ وَهُوَ اَنْ لَا يُصَرَّحَ بِذِكْرِ اَلْمُسْتَعَارِ بَلْ يُذْكَرُ بَعْضُ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ اَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ اَلنَّاسُ . وَكَقَوْلِ اَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَاِذَا اَلْمَنِيَّةُ اَنْشَبَتْ اَظْفَارَهَا اَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى اَنَّ اَلشُّجَاعَ اَسَدٌ وَاَلْعَالِمَ بَحْرٌ وَاَلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَاِنْ كَانَ يُشْبِهُ اَلْاِسْتِعَارَةَ اَلْمُجَرَّدَةَ اِلَّا اَنَّهُ اَغْرَبُ وَاَعْجَبُ . وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعْصِ اَطْرَافَ ٱلرِّمَاحِ فَاِنَّهُ يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلُّ لَهْذَمِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِاَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِاَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ اَيْ اَشْرَعُوا ٱلاَسِنَةَ وَاَخَرُوا ٱلرِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ اَيْضًا . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلاِسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَاَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَاَنَّ ٱلاِسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ اَصْلًا . مِثَالُهُ اَسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ بِاَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ اَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَاَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضًا)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (اَلْاَوَّلُ) اَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ اَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَاَحَدُهُمَا اَنْقَصُ مِنَ ٱلْاٰخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

ٱسمَ ٱلزَّائدِ مُبَالَغَةً فِي تَحقِيقِ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ لَهُ كَقَوْلِكَ : رَأَيتُ أَسَدًا . وَأَنتَ تَعْنِي رَجُلًا شُجَاعًا . (وَٱلثَّانِي) تُعْتَمَدُ لَوَازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ ٱلِٱشْتِرَاكِ وَصْفًا وَإِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي ٱلْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبَالَغَةً فِي إِثْبَاتِ ٱلْمُشْتَرَكِ . كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًا :

إِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ ٱلْمَنَايَا ٱلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ ٱلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ ٱلسَّيْفِ بِٱلسُّرُورِ وَكَمَالِ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورُ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلضَّحِكِ ٱلَّذِي يَتَهَلَّلُ بِهِ ٱلنَّوَاجِذُ أَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ ٱلْمَقْصُودِ وَإِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يَنْقَلُ إِلَيْهِ ٱسْمُ ٱلنَّوَاجِذِ . وَهٰكَذَا ٱلْكَلَامُ فِي قَوْلِ ٱلْحَمَاسِيِّ :

سَقَاهُ ٱلرَّدَى سَيْفٌ إِذَا سَلَّ أَوْمَضَتْ إِلَيْهِ مَنَايَا ٱلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ مَرْعَى ٱلْعِنَانِ وَمُلْقَى ٱلزِّمَامِ .

وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِسْمَيْنِ أَنَّكَ إِنْ رَجَعْتَ فِي ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَقْصِدُ مِنْ كُلِّ ٱسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ : رَأَيتُ رَجُلًا كَٱلْأَسَدِ أَوْ مِثْلَهُ أَوْ شِبْهَهُ . وَإِنْ رُمْتَهُ فِي ٱلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ ٱلْمُؤَاتَاةَ إِذْ لَا وَجْهَ أَنْ تَقُولَ : شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْيَدِ لِلشِّمَالِ . وَإِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ ٱلتَّشْبِيهُ بَعْدَ أَنْ تَخْرُقَ إِلَيْهِ سِتْرًا أَوْ تَعْمِلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا . وَفِي إِغْفَالِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ وُقُوعٌ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ كُلَّ ٱسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ ٱلْإِشَارَةُ إِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ ٱلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَٱصْنَعْ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ٱرْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱخْلَاصٌ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱلْمُسْتَعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلِٱنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرُ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنْزَلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ : وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَلْقَوْا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ : وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَدَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِٱنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وهٰذا الَّذي ذكرهُ ابو القاسم لا ارضى بهِ غاية الرضى ولو كنت اسكن الى تقليد احدٍ من علماء هٰذهِ الصناعة لقلدتهُ لحسن نظرهِ وصحة فكرهِ وهو عندي من الوسط ليس من جيد الاستعارة ولا من رديئها . وانما قلت ذلك لان ابا القاسم قد افصح بان امرء القيس لما جعل لليل وسطاً وعجزاً استعار لهُ اسم الصلب وجعلهُ متمطياً من اجل امتدادهِ وجعل الكلكل من اجل نهوضهِ وكلُّ هذا انما يحسن بعضهُ لاجل بعض . فذكر الصلب انما حسن لاجل العجز . والتمطي لاجل الصلب . والكلكل لمجموع ذلك . وهٰذهِ الاستعارة المبنية على غيرها فلذلك لم ار ان تجعل من ابلغ الاستعارات وكانت استعارة طفيل الغنوي في قولهِ :

وجعلتُ رحلي فوق ناجيةٍ يقتاتُ شحمَ سنامها الرحلُ

اوفق واوضح . لانها غنيةٌ بنفسها غير مفتقرةٍ الى مقدمةٍ جليتها . (وقال) وقد كنت مثلتُ في بعض مواضع الاستعارة المحمودة والمذمومة ببيتين احدهما قول ابن نباتة :

حتى اذا بهروا الاباطح والثرى نظروا اليكَ باعين النوار

فنظرُ اعين النوار من اشبه الاستعارات واليقها . لان النوار يشبهُ العيون اذا كان مقابلاً لمن يمرُّ بهِ كانهُ مناظرٌ اليهِ . والبيت الثاني بيت ابي تمام :

قرَّت بفرزان عين الدين واستترت بالاشترين عيونُ الشرك فاصطلحا

وقرة عين الدين واستتار عيون الشرك من اقبح الاستعارات

لِعَدَمِ ٱلشَّبَهِ ٱلَّذِي لِأَحَدِهِ جَعَلَ لِلشِّرْكِ عُيُونًا . وَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ لَا يَفْهَمْ مَعْنَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ وَٱلشِّرْكَ لَا عُيُونَ لَهُمَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ قَبُحَتْ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْعُيُونِ لِأَحَدِهِمَا وَحَسُنَتْ لِلْآخَرِ . وَٱلْعِلَّةُ فِيهِ أَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ . وَٱلدِّينَ وَٱلشِّرْكُ لَيْسَ فِيهِمَا مَا يُشْبِهُهَا وَلَا يُقَارِبُهَا .

وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ كَقَوْلِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ :

رَمَا ٱلنَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَا بَرِحَتْ حَوَامِلُ ٱلْمُزْنِ فِي أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ
وَلَا يَزَالُ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ يُرْضِعُهُ عَلَى قُبُورِكُمُ ٱلْعَرَّاصَةُ ٱلْهَمِعُ

لِأَنَّ ٱلْمُزْنَ تَحْمِلُ ٱلْمَاءَ وَإِذَا حَمَلَتْ تَضَعُهُ فَٱسْتِعَارَةُ ٱلْحَمْلِ لَهَا وَٱلْوَضْعِ ٱلْمَعْرُوفَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ وَأَشْبَهِهِ . وَكَذٰلِكَ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ لِأَنَّ ٱلْجَنِينَ ٱلْمَسْتُورَ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَنَّةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلنَّبْتُ مَسْتُورًا وَٱلْغَيْثُ يَسْقِيهِ كَانَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّضَاعِ

وَأَمْثَالُ ٱلْمَحَاسِنِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْمَسَاوِئِ كَثِيرَةٌ وَقَدْ أَخَذَ ٱلْقَوْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ حَقَّهُ . مَعَ أَنَّ أَقْوَالَ ٱلْعُلَمَاءِ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ

البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربية للثعالبي)

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَحَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَقْتَرَ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نَوَّرَتْ حَدَائِقُ ٱلْجَوِّ . شَابَ رَأْسُ ٱللَّيْلِ . لَبِسَتِ ٱلشَّمْسُ جِلْبَابَهَا . قَامَ خَطِيبُ ٱلرَّعْدِ . خَفَقَ قَلْبُ ٱلْبَرْقِ . ٱنْحَلَّ عِقْدُ ٱلسَّمَاءِ . وَهِيَ عِقْدُ ٱلْأَنْدَاءِ . ٱنْقَطَعَ شِرْيَانُ ٱلْغَمَامِ . تَنَفَّسَ ٱلرَّبِيعُ . تَعَطَّرَ ٱلنَّسِيمُ . تَبَرَّجَتِ ٱلْأَرْضُ . قَوِيَ سُلْطَانُ ٱلْحَرِّ . آنَ أَنْ يَجِيشَ مِرْجَلُهُ . وَيُثَوِّرَ قَسْطَلُهُ . ٱنْحَصَرَ قِنَاعُ ٱلصَّيْفِ . جَاشَتْ جُيُوشُ ٱلْخَرِيفِ . حَلَّتِ ٱلشَّمْسُ ٱلْمِيزَانَ . وَعَدَلَ ٱلزَّمَانُ . دَبَّتْ عَقَارِبُ ٱلْبَرْدِ . أَقْدَمَ ٱلشِّتَاءُ كُلُّكَلُهُ . ثَابَتْ فَارِقُ ٱلْجِبَالِ . يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ . كَشَّرَ عَنْ نَابِ ٱلزَّمْهَرِيرِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ : ٱلْأَدَبُ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّبَابُ بَاكُورَةُ ٱلْحَيَاةِ . ٱلنَّارُ فَاكِهَةُ ٱلشِّتَاءِ . ٱلْعِيَالُ سُوسُ ٱلْمَالِ . ٱلنَّبِيذُ كِيمِيَاءُ ٱلْفَرَحِ . ٱلْوَحْدَةُ قَبْرُ ٱلْحَيِّ . ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ ٱلْفَرَجِ . ٱلدَّيْنُ دَاءُ ٱلْكِرَامِ . ٱلنَّمَّامُ جِسْرُ ٱلشَّرِّ . ٱلْإِرْجَافُ زَنْدُ ٱلْفِتْنَةِ . ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنَّعِيمِ . ٱلرَّبِيعُ شَبَابُ ٱلزَّمَانِ . ٱلْوَلَدُ رَيْحَانَةُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّمْسُ قَطِيفَةُ ٱلْمَسَاكِينِ . ٱلطِّيبُ لِسَانُ ٱلْمُرُوءَةِ . وَيُسَمُّونَ ٱلنَّبَاتَ نَوًا . قَالَ : وَجَفَّ أَنْوَاءُ ٱلسَّحَابِ . أَيْ جَفَّ ٱلْبَقْلُ . وَيَقُولُونَ لِلْمَطَرِ سَمَاءٌ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا سَقَطَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهَا وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَتِ ٱلْأَرْضُ إِذَا ٱنْبَتَتْ لِأَنَّهَا تُبْدِي عَنْ حُسْنِ ٱلنَّبَاتِ كَمَا يَفْتَرُّ ٱلضَّاحِكُ عَنِ ٱلثَّغْرِ . وَيُقَالُ : ضَحِكَتِ ٱلظُّلْمَةُ . وَٱلنَّوْرُ يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ . قَالَ ٱلْأَعْشَى :

يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ مِنْهُ كَوْكَبٌ مُشْرِقٌ

مُؤَزَّرٌ لِعَمِيمِ ٱلنَّبْتِ مُكْتَهِلُ

وَيقولونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحَابُ بِٱلْبَرْقِ وَحَنَ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلْقَطْرِ . وَيقولونَ : لَقيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلْقِرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاَصْلُ هٰذَا اَنَّ حَامِلَ ٱلْقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ) . وَيقولونَ ايضًا : لَقيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلْجَبِينِ . وَٱلْعَرَبُ تقولُ : بِاَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ ٱلنَّاظِرُ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

كَٱلْكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلْكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلْمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلْعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ . وَقَالَ : وَاَمَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِاِبْنِ عَبَّاسٍ : اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَاَحْمِلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلْعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلْمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلْحِلْمُ وَٱلْاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ . وقالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ اَمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ قُرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُظِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ اَمْنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغَّبَهُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَأَشْرَبَ قَلْبَهُ ٱلْإِشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزْلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَشَدَّ حِسَابَهُ وَأَقَلَّ عَفْرَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ : ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي قَصَّرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْأَمَانَةِ أَمْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْيَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ أَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا أَجِدُ فِي حَقٍّ وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ : إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ : زَائِدْ ذَلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : ٱلشُّكْرُ كُفُوُّ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ جِنْدِسٍ قَدِ ٱلْتَفَّتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَدْرَاعُهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

ارْشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا ارْوَاحَ ٱلْعَدَوِ . وَقَالَ آخَرُ : فُلَانٌ اَمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ احْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَاَيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : اَيُّ طَعَامٍ اَطْيَبُ . قَالَ : اَلْجُوعُ اَبْصَرُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ اَبْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . اِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَاِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى اَمْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى اَعْدَائِهِ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ اِلَيْهِمْ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : اِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ اَحْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ . اِنْ اَسَأْتَ اِلَيْهِ اَحْسَنَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَاِذَا اَجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَاَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . اِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْاَذَى فَهُوَ وَاِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِاَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَاى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْحَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَاِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةَ قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَاَلَ اَعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ مَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ اَقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللُّؤْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْاٰخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ اَقَلُّ ذُنُوبًا اِلَى اَعْدَائِهِمْ

وَاكْثَرُ تَجَرُّمًا عَلَى اَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو اِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَاَيْتُ دَمْعَةً تَرْقَرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ اَحَرَّ مِنْ عَبْرَةِ اَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَاَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ اَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَاَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغُرَّهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَاَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا . لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ اِلَّا فِي وَجْهِ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيه . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ اِذَا وُلِيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَاِرْسَالِ ٱلْعُيُونِ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا اُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ اَرَ اَحَدًا كَانَ اَرْتَقَ لِحَالِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ اَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْاِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : اِذَا اَصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُقُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَاِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِاَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ اَحْسَنُوا اَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا اَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَيَّلُوا مَنَاكِبَهُ . اِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَمِشُ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا اَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : ٱلْخطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : ٱلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : ٱلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تَكْدُرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْٱسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلْٱئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَا ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ صَفْقَةً مِنْ رَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طُلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَلِيحٌ مِنْ عَيْبٍ. وَلَا خَلَا مِنْ مَرْفُوعٍ رَيْبٌ. مَعَ هٰذِهِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ
سَلِمَ ٱلْبَيْتَانِ مِنْ عَيْبِ ٱلْقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى
ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذٰلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ أَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ:

وَٱلنَّقْعُ ثَوْبٌ بِٱلنُّثُورِ مُطَرَّزٌ وَٱلْأَرْضُ فَرْشٌ بِٱلْجِيَادِ مُخَمَّلُ
وَسُطُورُ خَيْلِكَ إِنَّمَا أَلِفَاتُهَا سُمْرٌ تُنَقَّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكَلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوْبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلْأَلِفَاتِ
وَٱلنِّقَطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنْبِيهٌ) وَلَوْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ
عَيْبًا. كَقَوْلِ أَبِي نُوَاس:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلْحَوْضِ مَعَ زَمْزَمَ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبِ. وَإِنَّهُ غَيْرُ
مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَإِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوْضِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ
وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلْكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَأَفْرَدَ أَحَدَهُمَا وَثَنَّى
ٱلْآخَرَ أَوْ جَمَعَهُ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ كَانَ عَيْبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

أَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا أَمَا وَٱللّٰهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَا لَكَ فَٱعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ إِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلْآجَلَ) وَأَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ أَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (ٱلثَّانِي) أَنْ
يُذْكَرَ شَيْءٌ أَوْ أَشْيَاءُ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ اشْبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسَّفْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ ... عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَالْيَمِ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا ... وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(ٱلسَّفْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلتَّرَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اَنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اِنْ ... تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى ... فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ اَجِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اَدْنُ سُرَّ صِلِ

(ٱلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَيُخْتَمَ ٱلْكَلَامُ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلْاَشْيَاءِ . (اَلرَّابِعُ) اَنْ تَذْكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذْكُرَ مَعَهُ لَفْظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ اَمْرَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ ٱلْاَوَّلَ وَٱلْآخَرُ لَا يُلَائِمُهُ فَيَتَوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ اَنَّهُ مُرَادِفُ ٱلْمُلَائِمِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ اِيهَامَ ٱلتَّنْظِيرِ . كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : اَلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لَا ٱلْكَوْكَبُ لِعَطْفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والتعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

اِنَّ عَلَاقَةَ ٱلْمَجَازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلْمَنْقُولِ اِلَيْهِ بِٱلْمَنْقُولِ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلْمَجَازُ ٱسْتِعَارَةً كَمَا مَرَّ . وَاِما اَنْ تَكُونَ عَلَاقَةُ ٱلْمَجَازِ غَيْرَ ٱلْمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرْسَلًا كَلَفْظِ ٱلْيَدِ اِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ : جَلَّتْ اَيَادِيهِ عِنْدِي . اَيْ كَثُرَتْ نِعْمَتُهُ لَدَيَّ . وَٱتَّسَعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلَاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَاِنَّهَا تَصِلُ اِلَى ٱلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجَارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفَاعِلِيَّةِ لَهَا . وَاَيْضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَاِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِاَنَّ اَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلْاَفْعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلْقَطْعِ وَٱلْأَخْذِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَأَنْوَاعُ ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا عَائِدَةٌ إِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ . (فَمِنْ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَإِطْلَاقُ ٱلْخَاصِّ لِلْعَامِّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيدُونَ كُلَّهُ فَيَقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

أَوْ يَرْبِطْ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلْقُرْآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ . وَٱلْمُرَادُ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلْبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلْكُلِّ كَقَوْلِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلْخَطَأُ صِفَةُ ٱلْكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ إِطْلَاقُهُمْ لَفْظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلْكُلُّ كَقَوْلِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ أَنْ تُقِيمَ ٱلْوَاحِدَ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ فَيَقُولُونَ : قَرَنَّا بِهِ عَيْنًا . أَيْ أَعْيُنًا . وَكَقَوْلِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . وَٱلتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . وَٱلتَّقْدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ سُنَّةُ ٱلْعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلْكَبِيرِ : ٱنْظُرُوا فِي أَمْرِي . وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلْمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلْجَوَابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْعَامِّ لِلْخَاصِّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِأَسْرِهِ وَإِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْكُلِّ عَلَى ٱلْجُزْءِ نَحْوُ : يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ . يُرِيدُ الْاَنْمَلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ الْاَصَابِعِ . وَالْغَرَضُ مِنْهُ الْمُبَالَغَةُ كَاَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ الْاَصَابِعِ فِي الْاُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ الصَّاعِقَةِ . (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا الْاِتْيَانُ بِالْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ الْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللّٰهِ . وَاِنَّمَا اَرَادَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ . وَتَقُولُ الْعَرَبُ : اَفْعَلَا ذٰلِكَ . وَالْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ النَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ الْاَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللّٰهَ فَاعْبُدَا

وَيُقَالُ اِنَّهُ اَرَادَ : وَاللّٰهَ فَاعْبُدْنْ . فَقَلَبَ النُّونَ الْخَفِيفَةَ اَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ اَنْوَاعِ) الْعَلَاقَةِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ اِلَى (الْاِسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا اقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِاَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) اِطْلَاقُ اسْمِ الْمَلْزُومِ عَلَى اللَّازِمِ وَاللَّازِمِ عَلَى الْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . اَيْ هَلْ يَفْعَلُ . اَطْلَقَ الْاِسْتِطَاعَةَ عَلَى الْفِعْلِ لِاَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلِ السَّمَاءَ مِدْرَارًا . اَيِ الْمَطَرَ . لِاَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِاسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ . اَيِ الْقَبُولَ وَالْعَمَلَ بِهِ لِاَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ السَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا الْغَيْثَ . اَيِ النَّبَاتَ الَّذِي سَبَبُهُ الْغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِاسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ السَّمَاءُ نَبَاتًا . اَيْ غَيْثًا يَكُونُ النَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا . اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِاسْمِ مَا كَانَ

عَلَيْهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . أَيِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتْمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ نَحْوُ : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا أَيْ عِنَبًا . يُعْصَرُ فَيَؤُولُ إِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا إِلَّا كَفَّارًا . أَيْ صَائِرًا إِلَى ٱلْكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أَيْ أَهْلَ نَادِيهِ . أَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ : أَسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . أَيْ أَهْلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) أَيْ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ أَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِأَنَّهَا مَحَلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ : وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . أَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أَيْ أَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَلِلْمَرْأَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذَلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ أَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . أَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ أَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) إِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ : جِدَارٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا إِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلَكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

ٱمْتَلَأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اَيْ كَفَانِي وَلَيْسَ لِلْحَوْضِ قَوْلٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلرَّاعِي ٱلشَّاعِرِ ٱلنَّصْرَانِيِّ :

فِي مَهْمَهٍ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا فَلَقَ ٱلْفُؤُوسِ اِذَا اَرَدْنَ تَصُولَا

وَٱلْعَرَبُ تُسَمِّي ٱلتَّهَيُّؤَ لِلْفِعْلِ وَٱلْاِحْتِيَاجَ اِلَيْهِ اِرَادَةً. وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِلَفْظِ ٱلْمَاضِي وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ وَبِلَفْظِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَوْلِهِ : لِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيَاءَ ٱللّٰهِ اَيْ لِمَ قَتَلْتُمْ . وَكَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

فَاَدْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ اَدَعْ لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي ٱلْقَصَائِدِ مُصْنِفَا

اَيْ لِمَنْ يَكُونُ بَعْدِي . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : وَكَانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا . اَيْ كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ ٱلْاٰنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِٱلْمَفْعُولِ بِلَفْظِ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُونَ : سِرٌّ كَاتِمٌ اَيْ مَكْتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اَيْ مَعْمُورٌ. وَمَاءٌ دَافِقٌ اَيْ مَدْفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اَيْ مَرْضِيَّةٌ . وَحَرَمٌ آمِنٌ اَيْ مَأْمُونٌ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

اِنَّ ٱلْبَلِيَّةَ مَنْ تَمَلُّ كَلَامَهُ فَٱنْقَعْ فُؤَادَكَ مِنْ حَدِيثِ ٱلْوَامِقِ

اَيْ مِنْ حَدِيثِ ٱلْمَوْمُوقِ . وَيَعْكِسُونَ هٰذَا ٱلْعَمَلَ وَيَسْتَعْمِلُونَ ٱلْفَاعِلَ بِلَفْظِ ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا اَيْ آتِيًا. وَكَقَوْلِهِ : حِجَابٌ مَسْتُورٌ اَيْ سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ ٱلِٱسْمَ وَٱلْمَصْدَرَ مَقَامَ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْمَفْعُولِ. فَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : رَجُلٌ عَدْلٌ اَيْ عَادِلٌ . وَرِضًى اَيْ مَرْضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلْمٌ اَيْ مُسَالِمُونَ . وَحَرْبٌ اَيْ مُحَارِبُونَ . (وَكَذٰلِكَ) يَحْمِلُونَ ٱللَّفْظَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فِي تَذْكِيرِ ٱلْمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيثِ ٱلْمُذَكَّرِ فَيَتْرُكُونَ حُكْمَ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ وَيَحْمِلُونَهُ عَلَى مَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ اَنْفُسٍ. وَٱلنَّفْسُ مُؤَنَّثَةٌ وَاِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعْنَى ٱلْاِنْسَانِ اَوْ مَعْنَى ٱلشَّخْصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْخِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيِّتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السِّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا الْحُكْمُ فِي الْأَلْفَاظِ الَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا الْمَجَازُ بِالْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى السَّاتِرِ وَعَلَى الْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ الْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ الْمَجَازُ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ الْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ الْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا الْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ الْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِالنَّظَرِ وَالْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . فَالْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَالْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِالْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ الْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكُنْيَةِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا اسْمُهُ عَبْدُاللّٰهِ وَلَهُ وَلَدٌ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَاللّٰهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي الْحُكْمُ فِي الْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ الْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ . إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْوَصْفِ الْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِالْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ النِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ الْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ الْقَامَةِ كَثِيرُ الْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ الْمُرَادَ بِلَفْظِهِ الْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي الْوُجُودِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ النِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ الْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ الْقِدْرِ . وَكَقَوْلِ الْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَخُّنِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَخُّنُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْإِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَاتٌ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ وَالْكِنَايَةُ ضِدُّ الصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ اَحَدُهَا : الْخُصُوصُ وَالْعُمُومُ . وَالْآخَرُ الصَّرِيحُ . وَالْآخَرُ الْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي بَابِ الْاِسْتِعَارَةِ اَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ الْكِنَايَةِ اِلَى الْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ الْجُزْءِ وَخَاصِّ الْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي الْكَلَامِ مَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ اِسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّظَرِ اِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَالنَّظَرِ اِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي اَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَحُرِّضُ بِهَا بَنِي اُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ اَبِي مُسْلِمٍ :

اَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ اَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي التَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا التَّعْرِيضَ بِالْكِنَايَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اَوْرَدُوا لَهُمَا اَمْثِلَةً مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَاَدْخَلُوا اَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ اَمْثِلَةً مِنَ التَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ اَمْثِلَةً مِنَ الْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ الْغَانِمِيُّ وَابْنُ سِنَانٍ وَالْخَفَاجِيُّ وَالْعَسْكَرِيُّ . وَسَاَذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاُمَيِّزُ اَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلْآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ اِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلِّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ اَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا اَرَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَاَمَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : اِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَاَنَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَاِنَّ هٰذَا وَاَشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . اِنَّمَا دُلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَاِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عَرْضِهِ اَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : اَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : اَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْاِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَاَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ اِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْاَدَبِ . وَمِنْ اَمْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْاُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي اِبِلٍ وَلَا غَنَمْ وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعْلَمْ اَنَّ اَلْعَرَبَ يَلْتَجِئُونَ اِلَى اَلْكِنَايَةِ اِذَا مَا اَرَادُوا اَلتَّعْرِيضَ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ فَيَكْنُونَ عَنِ اَلْاَعْوَرِ بِاَلْمُمَتَّعِ . وَعَنِ اَلَّذِي فِي عَيْنَيْهِ نُكْتَةُ بَيَاضٍ بِاَلْمُكَوْكَبِ . وَعَمَّنْ فِي وَجْهِهِ اَثَرُ ضَرْبَةٍ بِاَلْمُشَطَّبِ . وَلِبَعْضِهِمْ فِي اَبْرَصَ :

اَخُو لَخْمٍ اَعَارَكَ مِنْهُ ثَوْبًا هَنِيئًا بِاَلْقَمِيصِ اَلْمُسْتَجَدِّ

اَرَادَ بِاَخِي لَخْمٍ جُذَيْمَةَ اَلْاَبْرَصَ . وَلِلصَّاحِبِ فِي اَلْجَرَبِ :

اَبَا اَلْعَلَاءِ هِلَالُ اَلْهَزْلِ وَاَلْجِدِّ كَيْفَ اَلنُّجُومُ اَلَّتِي يَطْلُعْنَ فِي اَلْجَلَدِ

وَيُكَنَّى عَنِ اَلْحَوَلِ بِاَلتَّاخُرِ . قَالَ اَلدُّوَلِيُّ :

بِيضُ اَلْمَطَابِخِ لَا تَشْكُو اِمَاؤُهُمُ طَبْخَ اَلْقُدُورِ وَلَا غَسْلَ اَلْمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ :

ثِيَابُ طَبَّاخٍ اِذَا اَتَّسَخَتْ اَنْقَى بَيَاضًا مِنَ اَلْقَرَاطِيسِ

وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ اَلْخُوَارَزْمِيُّ :

فَتًى مُخْتَصِرُ اَلْمَأْكُو لِ وَاَلْمَشْرُوبِ وَاَلْعِطْرِ

نَقِيُّ اَلْكَأْسِ وَاَلْقَصْعَةِ مِ وَاَلْمِنْدِيلِ وَاَلْقِدْرِ

وَيَكْنُونَ عَنِ اَلْجَاهِلِ بِاَنَّهُ مِنَ اَلْمُسْتَرِيحِينَ . وَيُرْوَى اَنَّ خِلَافًا وَقَعَ بَيْنَ بَعْضِ اَلْخُلَفَاءِ وَبَيْنَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسْاَلَةٍ . فَاتَّفَقَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ اَهْلِ اَلْعِلْمِ فَاُحْضِرَ . فَوَجَدَ اَلْخَلِيفَةَ مُخْطِئًا فَقَالَ : اَلْقَائِلُونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْاَطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : اِرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِاُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ ٱقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِاَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ . (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ مُولًا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاَيَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاِذَا كَانَ قَمْلُ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ ... وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيْسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي الشِّعْرِ.
قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ اللهِ فِي الشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ اللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ الشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ الطَّبَقَةِ لِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

الشُّعَرَاءُ فَاعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ الْجَمْعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ الْأَحْيَاءِ وَجَهَازُ الْمَوْتَى.
وَيَكْنُونَ عَنِ الْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ الْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ الْبَقْلِ.
وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِالْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِالزُّجَاجِ.
وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ابْنَ الَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدِ بِرَحْمَةِ اللهِ أَيُّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى النِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ الْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ الْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.
وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا ... فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنًا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ ٱلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ فُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ ... فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى ... لَمْ أَجِدْ مَهْرَبًا إِلَى ٱلْآقْدَامِ
فَكَأَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ... خَابِطٌ فِي عُبَابِ أَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ: لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ. يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مِثْلُ ٱلْأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ وَٱلْأَشْهَبِ. يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي أَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَتَفَاءَلَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ لِلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهُ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعِ نَقَاءِ ٱلثَّوْبِ ٱلْبَرَاءِ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَإِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ إِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ: طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ أَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجْزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: إِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: ٱلثَّوْبَ وَٱلْإِزَارَ. فَإِنَّهُمْ

يريدون البدن . ويقولون : فلانٌ أوسع بني أمية ثوبا . أي أكثرهم معروفا . وفلانٌ غمر الرداء إذا كان كثير المعروف . قال كثيّر :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

وكذلك قولهم : فلانٌ رحب الذراع . ومن الكنايات اللطيفة ما ذكرها الأدباء في الشيب والكبر . فيقولون : عرضت لفلان فترة . عرض له ما يمحو ذنوبه ويكفر سيئاته . أقر ليله نور غصن شبابه . فضض الزمان أبنوسه . وجاءه النذير . وقرع ناجذ الحلم . وارتاض بلجام الدهر . ادرك زمان الحنكة . رفض غرة الصبى ولبى داعي الحجى . ومن كناياتهم عن الموت : استأثر الله به . اسعده الله بجواره . نقله الى دار رضوانه . ومحل غفرانه . انتقل الى جوار ربه وانقلب الى محل عفوه . اختار له النقلة من دار البوار الى دار الابرار

المبحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

المبالغة نوعٌ معدودٌ من محاسن فن الكتابة عند الجمهور واستدلوا على ذلك بقول من قال : احسن الشعر اكذبه . وبقول النابغة الذبياني : اشعر الناس من استجيد كذبه . ومنهم من لم يعد

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلْاِسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغُلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا إِنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلْاِمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلْاِسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ .

وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا مُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرَكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلُ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلْاِصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْاِغْرَاقُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً . (وَٱلْغُلُوُّ) وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ . وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اَوَّلًا اَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ اَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَاَجْزَاتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ اَبْلَغَ مِنْ مَعْنًى قَصَدَهُ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلثَّغْلَبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : اِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ اَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى اَكْثَرِ مَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ فَتَعَطَّاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْاِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا اَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ اَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلْاِلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ اَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى نَظَمَ ٱلْجُزْءَ ثَانِيَهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَتْرُكُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا أَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكِيمِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِٱلْقِرَى

مِنَ ٱلْكَلْبِ أَمْسَى وَهْوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ أَمَّا (ٱلْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلِاصْطِلَاحِ اِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ سِنْدُهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ اَنَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلِاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلِامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلْاِسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْاِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ :

يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ ٱلْاَبْصَارَ . اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ اَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْاَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلْاِمْتِنَاعِ اِلَى ٱلْاِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْاِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ اَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْاِغْرَاقِ وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْاَنْفِ :

لَكَ اَنْفٌ يَا اَبْنَ حَرْبٍ اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْاُنُوفُ
اَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيمًا :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

وَلَوْ أَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ ... يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ

وَلَوْ أَنَّ أُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا ... مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَٱسْتَظَلَّتِ

وَلَوْ جُمِّعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ حُمُوعُهَا ... عَلَى ذُرْوَةٍ مِمْحَالَةٍ لَٱسْتَقَلَّتِ

أَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَإِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّبَهُ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلْقَبُولِ بِأَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ أَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْمُحَسِّنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ إِلَى قَبُولِهَا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَإِنَّ إِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ... تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا

تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلِّ ... تَجُدُّ إِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ أَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثَيْرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً إِلَّا أَنَّهُ تَخْيِيلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاس فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا إِلَى مَوْضِعِ ٱلْأَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطْلُعَ نَدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : إِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ إِلَى أَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا إِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْأَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَأَنِّي دَحَوْتُ ٱلْأَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى ٱلْإِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهَذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي إِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْإِطَالَةُ لَأَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَأَبِي

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليهِ عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُوَاس وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلْاَنْدَلُسِيّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُتَاَخِّرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ . وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَاْخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْاَخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . فَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِالطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ اِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَاْتِيَ لِمَعْنًى . وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَاْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَاعْلَمْ اَنَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ يَاْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَاْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ اَمْرِهِ . وَاِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِالشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ اِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ اَوْ فِي ذَمِّهِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَاْتِي اِلَّا فِي اَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِالذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٍ مِنْهُ لِاَنَّ اَحَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ اِمَا بِمَدْحٍ اَوْ ذَمٍّ اَوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ ٱلْمُفِيدِ لَا يَاْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَيْهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ للّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمٰنَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللّٰهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمِي ثُمَّتِ ٱسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نُهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِّقْلُ هُوَ اَلْعِبْءُ وَاَلْعِبْءُ هُوَ اَلثِّقْلُ. وَرُبَّمَا اَشْكَلَ هٰذَا اَلْمَوْضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ اَلْفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ اَلتَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى اَلْمَقْصُودِ وَاَلْمُبَالَغَةُ فِيهِ. اَمَّا اَلْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) اَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ. وَاَمَّا بَيْتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ اَلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ اَلْمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ لِلْاَثْقَالِ. وَهٰذَا اَلْمَوْضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ اَحَدٌ سِوَايَ. وَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي اَلتَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا اَلنَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. فَمِنْهُ قَوْلُهُ: ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا اَلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى اَلْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ اَلْاَقْوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ اَلتَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ. وَقَدْ اَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ اَلتَّكْرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ اَلْفَصْلُ مِنَ اَلْكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفْتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ اِلَّا بِهِ فَالْاَوْلَى فِي بَابِ اَلْفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ اَللَّفْظُ اَلْاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ اَلْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ اَلْكَلَامُ مَنْثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا). فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اَسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ اَلْكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحْسَنُ فِي حُكْمِ اَلْبَلَاغَةِ وَاَلْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ اَلْحَمَاسَةِ:

اَبِيجُنَا وَقَيْدًا وَاَشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ

وَاِنَّ اِمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فَإِنَّهُ لَمَّا طَالَ ٱلْكَلَامُ بَيْنَ ٱسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّ تَقْدِيرَ ٱلْكَلَامِ : وَإِنَّ ٱمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هٰذَا لَكَرِيمٌ . لٰكِنْ بَيْنَ ٱلِٱسْمِ وَٱلْخَبَرِ مَدًى طَوِيلٌ فَإِذَا لَمْ تُعَدْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يَأْتِ عَلَى ٱلْكَلَامِ بَهْجَةٌ . وَهٰذَا لَا يَتَنَبَّهُ لِٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا ٱلْفُصَحَاءُ امَّا طَبْعًا وَإِمَّا عِلْمًا . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَبَرُ (إِنَّ) عَامِلًا فِي مَعْمُولٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ فَإِنَّ إِعَادَةَ ٱلْخَبَرِ ثَانِيَةً هُوَ ٱلْأَحْسَنُ . وَعَلَى هٰذَا جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فَلَمَّا قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ ثُمَّ طَالَ ٱلْفَصْلُ كَانَ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُعِيدَ لَفْظَ (ٱلرُّؤْيَةِ) فَيَقُولَ : رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . وَمِنْ بَابِ (ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) ٱلدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ قَوْلُهُ : وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ هَا هُنَا لِزِيَادَةِ ٱلتَّنْبِيهِ لَهُمْ وَٱلْإِيقَاظِ عَنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَلِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ فَيَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ فَيَسْتَدْعِي بِذٰلِكَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى نَصِيحَتِهِ . وَهٰذَا فِي ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ وَأَشَدُّ مَوْقِعًا مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

إِلَى عَدِنٍ ٱلْعِزِّ ٱلْمُؤَثَّلِ وَٱلنَّدَى هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

فَقَوْلُهُ : هُنَاكَ هُنَاكَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ

لِأَنَّهُ فِي مَعْرِضِ مَدْحٍ فَهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ مَا عِنْدَ الْمَمْدُوحِ مِنْ هٰذِهِ الْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيْهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الْمُسَاوِرِ ابْنِ هِنْدٍ :

جَزَى اللّٰهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ الدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ الْبَيْتِ الثَّانِي وَعَجُزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ الْكُرَبِ عَلَيْهِ كَتَعَالِي الْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدْحٍ وَإِطْرَاءٍ أَلَا تُرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحْسَانَ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهْرِهِ فِي التَّكْرِيرِ . وَفِي قَبَائِلِهِ لَوْ كَانَ الْقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ الْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَالْمَدْحِ . (الضَّرْبُ الثَّانِي مِنَ التَّكْرِيرِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى) وَهُوَ غَيْرُ الْمُفِيدِ . مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ الْأَصْغَرِ :

سَقَى اللّٰهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدٍ ... وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ الْعَيِّ الضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي الْأَوَّلِ الثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي الثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيْهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . الْمَعْنَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ هٰذَا التَّكْرِيرِ . أَمَّا الْبَيْتُ الْأَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى الْجَائِزِ مِنَ التَّكْرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ التَّكْرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ

يُسَوِّغَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدَ فِي ٱلْبَيْتَيْنِ مَعًا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَأْتِيَ بِهٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُتَتَابِعِ سِتَّ مَرَّاتٍ . وَعَلَى هٰذَا ٱلْاُسْلُوبِ وَرَدَ قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

اَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

وَمُرَادُهُ مِنْ ذٰلِكَ اَنَّهُمْ اَقَامُوا بِهَا اَرْبَعَةَ اَيَّامٍ . وَيَا عَجَبًا لَهُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلسَّخِيفِ ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْعَيِّ ٱلْفَاحِشِ فِي ضِمْنِ اَبْيَاتٍ عَجِيبَةِ ٱلْحُسْنِ تَتَقَدَّمُ هٰذَا ٱلْبَيْتَ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ اَيْضًا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَمْ اَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمِ مَقَامُ

فَهٰذَا هُوَ ٱلتَّكْرِيرُ ٱلْفَاحِشُ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلْكَلَامِ نَقْصًا . اَلَا تَرَى اَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ اَرَ مِثْلَ جِيرَانِي فِي سُوءِ ٱلْجِوَارِ وَلَا مِثْلِي فِي مُصَابَرَتِهِمْ وَمُقَامِي عِنْدَهُمْ . اِلَّا اَنَّهُ قَدْ كَرَّرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ . وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ :

وَقَلْقَلْتُ بِٱلْهَمِّ ٱلَّذِي قَلْقَلَ ٱلْحَشَى قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

(وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ) فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : مُفِيدٌ وَغَيْرُ مُفِيدٍ . (ٱلضَّرْبُ ٱلْاَوَّلُ) ٱلْمُفِيدُ وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْاَوَّلُ) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَهُوَ مَوْضِعٌ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ مُشْكِلٌ لِاَنَّهُ يَسْبِقُ اِلَى ٱلْوَهْمِ اَنَّهُ تَكْرِيرٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ لَيْسَ كَذٰلِكَ . . . بَلْ يُقْصَدُ بِهِ ٱلتَّاْكِيدُ وَٱلتَّقْرِيرُ وَٱلتَّنَصُّلُ عَمَّا يُرْمَى بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ . وَبِمَا

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ اُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى ٱللّٰهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ . لِاَنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ اَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ اَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْاَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا اَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : اِنَّا عَرَضْنَا ٱلْاَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْاَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَاِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْاَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْاَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْاَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ اَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ اَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي اَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى اِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا نَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ مِنْ اَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَاِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَاِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعَفْوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغْفِرَةَ وَٱلْجَمِيعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ أَوْجَزُ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْإِيجَازِ وَأَوْلَى بِٱلِٱسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

نَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا بَعِيدًا عَنِ ٱلْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي

فَإِنَّ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلِٱفْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْإِحْسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْإِيجَابِ لِحَقِّهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلَاثَا

فَإِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْأَكْثَرُ مِنْهُمْ أَجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِعَيْبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا إِذَا أَتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . أَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَأَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْأَعْجَازُ مِنَ ٱلْأَبْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضْطَرٌّ إِلَيْهَا وَٱلْمُضْطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلَّتِي مَطْلَعُهَا :

أَلَا أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعِمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَإِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا

هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً مَالَا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مَعِيبٌ لِأَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِأَنَّ ٱلْقَافِيَةَ هِيَ ٱلْبَاءُ . وَأَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَطْلَقُوا أَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى أَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ أَحَدُهُما مَسَدَّ الْآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ التَّشْبِيهُ الْعَامُّ الَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَهُ التَّشْبِيهُ الْبَلِيغُ وَغَيْرُهُ. وَالتَّشْبِيهُ الْبَلِيغُ هُوَ إِخْرَاجُ الْأَغْمَضِ إِلَى الْأَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ التَّأْلِيفِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: التَّشْبِيهُ هُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى اشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ أَوْصَافِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ. وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ: التَّشْبِيهُ صِفَةُ الشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ إِيَّاهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: خَدٌّ كَالْوَرْدِ إِنَّمَا مُرَادُهُمْ احْمِرَارُ أَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كُمَائِمِهِ (اه). وَقِيلَ: التَّشْبِيهُ إِلْحَاقُ أَدْنَى الشَّيْئَيْنِ بِأَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ اشْتَرَكَا فِي أَصْلِهَا وَاخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضُعْفًا. قُلْتُ: وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ. وَأَوْرَدَ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ التَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى الْحَدِّ وَهُوَ: أَنَّ التَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (الْأَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ الْجَوْهَرِ بِالْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ: مَاءُ النِّيلِ كَمَاءِ الْفُرَاتِ. وَتَشْبِيهِ الْعَرَضِ بِالْعَرَضِ كَقَوْلِكَ: حُمْرَةُ الْخَدِّ كَحُمْرَةِ الْوَرْدِ. وَتَشْبِيهِ الْجِسْمِ بِالْجِسْمِ كَقَوْلِكَ: الزَّبَرْجَدُ مِثْلُ الزُّمُرُّدِ. (وَالثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِالذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرَكٌ. كَقَوْلِكَ: حَاتِمٌ كَالْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَالضِّرْغَامِ. وَتَشْبِيهُ الِاتِّفَاقِ وَهُوَ الْأَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ. وَتَشْبِيهُ الِاخْتِلَافِ وَهُوَ الثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَالْمُرَادُ الْمُبَالَغَةُ. وَالتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْبَلَاغَةِ لِإِخْرَاجِهِ الْخَفِيَّ إِلَى الْجَلِيِّ وَإِدْنَائِهِ الْبَعِيدَ مِنَ الْقَرِيبِ. وَهُوَ حُكْمٌ إِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ إِلَّا بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ الِاسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ الْحُكْمُ

اَنَّهُ اِذَا صَحَّتِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَاِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ اِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلْاِسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ : كَاَنَّكَ اَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ اِذَا اَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْاَلَةَ فَكَاَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي اَوْ كَاَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ حَتَّى كَاَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقِيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائدهِ

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ اَنَّ لِلتَّشْبِيهِ اَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَاَنَ وَشِبْهِ وَمِثْلِ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا اُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا اَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ وَمُنْهُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ

كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْـ ... ـرِ وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْاَحْنَفِ :

لَاجَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْرًا ... وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي

نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا ... وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ

كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ اَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا . فَشَبَّهَ ٱللَّيْلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ اَنَّهُ يَسْتُرُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ اَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ اَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ اَوْ اِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلْاِطِّلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ اَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْاَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَاِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا وَاِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا

وَاِذَا ٱلْاَرْضُ اَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَاِذَا ٱلْاَرْضُ اَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ . وَاِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ اَبْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهِرِ ٱلْاَدَاةِ وَاَوْجَزُ . اَمَّا كَوْنُهُ اَبْلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ اَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ اِيَّاهُ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ اَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ اَسَدًا مِنْ غَيْرِ اِظْهَارِ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَاَمَّا كَوْنُهُ اَوْجَزَ فَلِحَذْفِ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضْمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَاِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . اَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْاِقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . اِلَّا اَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ سِوَى اَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلْاَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَكْشَفَ وَاَبْيَنَ مِنْ اَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءٌ اَجْنَانُ وَاَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ اَعْنِي ٱلْاَسَدَ . وَاَمَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيْضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَٱلْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ . وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ . فَٱلتَّشْبِيهُ إِذَا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ : ٱلْمُبَالَغَةُ . وَٱلْبَيَانُ . وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ . إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعِرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ . وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ . فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ . لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مَحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ . وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ : أَنَّكَ إِذَا أَمْثَلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْحَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ : قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

أَلَا تَرَى كَيْفَ مَدَحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ إِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ أُخْرَى . وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا أَمْكَنَهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا أَرَدْنَاهُ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًّا كَقَوْلِنَا : أَقْدَمَ إِقْدَامَ ٱلْأَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ . وَهُوَ أَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاس فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ :

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ
وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا أَخَذَتْ أَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ . وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ مَنْ أَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي أَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلْأَصْغَرُ بِٱلْأَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ . لِأَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ . وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ . وَإِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْإِبَانَةِ وَٱلْإِيضَاحِ . وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ أَصْغَرَ بِأَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ . بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ إِلَيْهِ إِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ بَيَانًا أَوْ إِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفْظَةِ اَفْعَلَ (يُرِيدُ اَفْعَلَ ٱلتَّفْضِيل) . فَاِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (اَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ . فَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا اِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْاَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهٌ كَبِيرٌ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ . لِاَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : اِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : اِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَاِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْاِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفْظَةِ (اَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ) : اَلْاَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا اِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْاُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . اَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْاَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلْاِسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْاَخْلَاقِ . اَوْ فِي حَالَةٍ اِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ اَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : اَلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ اِلَى ٱلنَّفْسِ وَاهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُوشَبِ ٱلْاَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى اَيْنُ طَرَفَاهَا . فَاِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ اِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا اَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ اَصْلًا وَٱلْاَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَاَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَاَنَّهَا نُجُومٌ . وَاِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ اِنْقِيَادَ ٱلْاَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ ... أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ التُّرَابِ وَفَوْقَ الْآ ... رَضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(الثَّالِثُ) تَشْبِيهُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ. وَكَقَوْلِهِ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (الرَّابِعُ) تَشْبِيهُ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ الْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ الْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَالْأَصْلِ فَرْعًا. وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الشَّمْسِ بِالظُّهُورِ وَالْمِسْكِ بِالثَّنَاءِ فَقَالَ: الشَّمْسُ كَالْحُجَّةِ فِي الظُّهُورِ. وَالْمِسْكُ كَالثَّنَاءِ فِي الطِّيبِ. كَانَ سَخِيفًا مِنَ الْقَوْلِ. فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي الْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ الْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَالْأَصْلِ الْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ التَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ. وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا ... سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ السُّنَّةِ بِالْبَيَاضِ وَالْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ: أَتَيْتُكُمْ بِالْحَنِيفِيَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. وَاشْتُهِرَتِ الْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِالظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ الشَّاعِرُ أَنَّ السُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ الْأَجْنَاسِ الَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ الْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي لَهَا اخْتِصَاصٌ بِالسَّوَادِ وَالظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ التَّشْبِيهُ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهٰذَا التَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخْيِيلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا. ثُمَّ

يُتَخَيَّلُ اَصْلًا فَيُشَبَّهُ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْاَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ : اَسْوَدَتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ). جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوَى كَأَنَّهُ اَشْهَرُ وَاَعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهَهُ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا . وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ . فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ اَصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ فَقِسْ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اَهْدَى لِلْقَاضِي اَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا اَيُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

اَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَاَنَّمَا اُهْدِي لَهُ اَخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْاَمْرِ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا . وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ ٱلْجَوَّ يَكْنِفُهُ وَهَمٌ تُمَثِّلُهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِاَنَّهُ لَمَّا اَرْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ اَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِاِظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ اَوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ . وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْاَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ . وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَتِمُّ اِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ اُمُورًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْاَعْيَانِ . فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بَيْنَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَةَ كَمَا قَالَ :

مَا هٰذَا بَشَرٌ إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلْإِنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَعْقُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ). وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عَرِيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلُهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَرَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اَكْثَرَ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ اَوْغَلَ فِي كَوْنِهِ عَقْلِيًّا كَقَوْلِهِ : اِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْاَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْاَنْعَامُ حَتَّى اِذَا اَخَذَتِ ٱلْاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ اَهْلُهَا اَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا اَتَاهَا اَمْرُنَا لَيْلًا اَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَاَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلْاَمْسِ . فَاِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ مُنْتَزَعٌ مِنْ مَجْمُوعِ هٰذِهِ ٱلْجُمَلِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُمْكِنَ فَصْلُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ . فَاِنَّكَ لَوْ حَذَفْتَ مِنْهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ اَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ اخلَّ ذٰلِكَ بِٱلْمَقْصُودِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . ثُمَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ اِنْ كَانَ مُرَكَّبًا فَاِنَّهُ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) مَا لَا يُمْكِنُ اِفْرَادُ اَحَدِ اَجْزَائِهِ بِٱلذِّكْرِ كَقَوْلِهِ :

كَاَنَّ سُهَيْلًا وَٱلنُّجُومَ وَرَاءَهُ صُفُوفُ صَلَاةٍ قَامَ فِيهَا اِمَامُهَا

فَاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اِفْرَادُ اَجْزَاءِ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ اِذْ لَوْ قُلْتَ : كَاَنَّ سُهَيْلًا اِمَامٌ وَكَاَنَّ ٱلنُّجُومَ صُفُوفُ صَلَاةٍ . ذَهَبَتْ فَائِدَةُ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهِ . (ٱلثَّانِي) مَا يُمْكِنُ اِفْرَادُهُ بِٱلذِّكْرِ وَيَكُونُ اِذَا اُزِيلَ مِنْهُ ٱلتَّرْكِيبُ صَحِيحَ ٱلتَّشْبِيهِ فِي طَرَفَيْهِ اِلَّا اَنَّ ٱلْمَعْنَى مُغَيَّرٌ كَقَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَكَاَنَّ اَجْرَامَ ٱلنُّجُومِ لَوَامِعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ اَزْرَقِ

فَلَوْ قُلْتَ : كَاَنَّ ٱلنُّجُومَ دُرَرٌ وَكَاَنَّ ٱلسَّمَاءَ بِسَاطٌ اَزْرَقُ وَجَدْتَ ٱلتَّشْبِيهَ مَقْبُولًا . وَلٰكِنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهَا قَدْ زَالَ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ فِي اُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَلَا يَتَقَيَّدُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . وَاِنَّمَا يَكُونُ بَعْضُهَا مَضْمُومًا اِلَى ٱلْبَعْضِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ

كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَالْأَسَدِ بَأْسًا وَالْبَحْرِ جُودًا وَالسَّيْفِ مَضَاءً وَالْبَدْرِ بَهَاءً . وَكَقَوْلِكَ : هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ . وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ التَّرْتِيبُ . (وَالثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ الْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ الْبَاقِي . وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ فِي التَّشْبِيهِ وَالنَّهْجُ الْقَاصِدُ فِي التَّمْثِيلِ عَنِ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ الْجَوَادِ بِالْبَحْرِ وَالْمَطَرِ . وَالشُّجَاعِ بِالْأَسَدِ . وَالْحَسَنِ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . وَالْفَهِمِ الْمَاضِي بِالسَّيْفِ . وَالْعَالِي الرُّتْبَةِ بِالنَّجْمِ . وَالْحَلِيمِ الرَّزِينِ بِالْجَبَلِ . وَالْحَيِيِّ بِالْبِكْرِ . ثُمَّ يُشَبِّهُونَ اللَّئِيمَ بِالْكَلْبِ . وَالْجَبَانَ بِالصَّفْرَدِ . وَالطَّائِشَ بِالْفَرَاشِ . وَالذَّلِيلَ بِالنَّقَدِ وَالنَّعْلِ . وَالنَّفْعَ بِالْوَتَدِ . وَالْقَاسِيَ بِالْحَدِيدِ وَالصَّخْرِ . وَالْبَلِيدَ بِالْجَمَادِ . وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَامًا فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَالسَّمَوْأَلِ فِي الْوَفَاءِ . وَحَاتِمٍ فِي السَّخَاءِ . وَالْأَحْنَفِ فِي الْحِلْمِ . وَسَحْبَانَ فِي الْبَلَاغَةِ . وَقُسٍّ فِي الْخَطَابَةِ . وَلُقْمَانَ فِي الْحِكْمَةِ . وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ الْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ الذَّمِّ كَبَاقِلَ فِي الْعِيِّ . وَهَبَنَّقَةَ فِي الْحُمْقِ . وَالْكُسَعِيِّ فِي النَّدَامَةِ . وَمَادِرٍ فِي الْبُخْلِ

وَٱلتَّشْبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . مِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ نَتَنَتْ . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطَّيِّبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حُرِّ

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللّٰهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فَانْبَاؤُكَ تَأْتِينَا كَمَا وَشَى بِالْمِسْكِ رَيَّاهْ . وَنَمَّ عَلَى الصَّبَاحِ مُحَيَّاهُ .

وَقَالَ : اَلرَّجُلُ ذُو الْمُرُوءَةِ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ . كَالْاَسَدِ يُهَابُ وَاِنْ كَانَ رَابِضًا . وَالرَّجُلُ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَاِنْ كَانَ غَنِيًّا . كَالْكَلْبِ يَهُونُ عَلَى النَّاسِ وَاِنْ طُوِّقَ . وَقَالَ : لَا يَجِبُ لِلْمُذْنِبِ اَنْ يُفْحَصَ عَنْ اَمْرِهِ لِقُبْحِ مَا يَنْكَشِفُ مِنْهُ كَالشَّيْءِ الْمُنْتِنِ كُلَّمَا اُثِيرَ اَزْدَادَ نَتْنًا . وَقَالَ اَيْضًا : مَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ لِعَاجِلِ الْجَزَاءِ فَهُوَ كَمُلْقِي الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا لِيَنْفَعَهَا بَلْ لِيَصِيدَهَا بِهِ . وَقَالَ اَيْضًا : اَلْمَالُ اِذَا اجْتَمَعَ وَلَمْ يُصْرَفْ فِي الْحُقُوقِ اَسْرَعَ اِلَيْهِ الْهَلَاكُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَالْمَاءِ اِذَا اجْتَمَعَ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ اِلَى النُّفُوذِ تَفَجَّرَ مِنْ جَوَانِبِهِ فَضَاعَ . وَقَالَ اَيْضًا : يَبْقَى الصَّالِحُ مِنَ الرِّجَالِ صَالِحًا حَتَّى يُصَاحِبَ فَاسِدًا فَاِذَا صَاحَبَهُ فَسَدَ مِثْلُ مِيَاهِ الْاَنْهَارِ تَكُونُ عَذْبَةً حَتَّى تُخَالِطَ مَاءَ الْبَحْرِ فَاِذَا خَالَطَتْهُ مَلُحَتْ . وَمِنَ التَّشَابِيهِ الْحَسَنَةِ قَوْلُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ : اَلْاَدَبُ عِنْدَ الْاَحْمَقِ كَالْمَاءِ الْعَذْبِ فِي اُصُولِ الْحَنْظَلِ كُلَّمَا اَزْدَادَ رِيًّا اَزْدَادَ مَرَارَةً . وَمِنَ التَّشَابِيهِ الشِّعْرِيَّةِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُ لَبِيدٍ :

وَمَا الْمَرْءُ اِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ اِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا الْمَالُ وَالْاَهْلُونَ اِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا اَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

ثُمَّ قَالَ :

وَاَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ اَخْلَقَ جَفْنُهُ ... تَقَادَمُ عَهْدِ الْقَيْنِ وَالنَّصْلُ قَاطِعُ

وَكَقَوْلِ صَالِحِ بْنِ جَنَاحٍ الْعَبْسِيِّ :

اَلَا اِنَّمَا الْاِنْسَانُ غِمْدٌ لِقَلْبِهِ ... وَلَا خَيْرَ فِي غِمْدٍ اِذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا ... وَلَاظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ ... فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا

لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُطِرُ ٱلذَّهَبَا

وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ

وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي ... وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقْلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرَ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ ... وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ اَيضًا وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلْاِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ يَتَبَارَيَانِ دَمًا وَعَرْفًا سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَاَيْتَهُ يُهْدِي اِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيرًا مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَاَرْبَعَةً بِاَرْبَعَةٍ. وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ اَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَاِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَاَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَاَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ اَرْبَعَةَ اَشْيَاءَ بِاَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا م ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ اَذْفَرِ
فَكَاَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ اَوْ جَدْوَلٌ اَوْ سِمْطُ دُرٍّ اَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهًا وَاحِدًا مُقَيَّدًا بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ اَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا اَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا اَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَاِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : اَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا

بِذَاتِهِ. لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ أَدَّى إِلَى ٱنْتِهَاءٍ مُؤْيِسٍ . وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجُمْلَةٍ فَإِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ أَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا نَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْأَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ أَصْلًا . وَهٰذَا أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ وَأَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِأَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَإِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَإِذْ ذَكَرْنَا أَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي ٱقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِأَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يُرَدُّ مِنْهُ مُضْمَرُ ٱلْأَدَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاس :

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ ٱمْسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجْلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ اَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً وَذَهَبْتَ اَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاِهَابَ وَمَا بَقِي مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَوْلَ مَعْنًى لَيْسَ بِطَائِلٍ. فَاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَقُولَ : ذَهَبْتَ بِٱلْاَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاَدْنَى. اَوْ : ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ. وَاَمَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهِرُ ٱلْاَدَاةَ) فَهٰذِهِ اَمْثَالٌ اَوْرَدْتُهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا فَاِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

تَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَاَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْاٰخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِاَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ اَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَاعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَاَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْقَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكُحَيْلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ اَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ. وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وجرى على الورق النجيع القاني فكأنه النارنج في الاغصان

وهذا تشبيه ينكره اهل التجسيم . وقد عدوا من التشابيه التي هي غير بليغة قول الشاعر في وصف الروض :

كان شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء

فهذا وان كان تشبيها مضيئا فان فيه بشاعة كثرة الدماء التي تعاف الانفس الطيفة رؤيتها . وفي اقوال العرب تشابيه تحجها الاذواق الصحيحة وتنفر منها الطباع السليمة . فمن ذلك قول النابغة وقد عابه الاصمعي بين يدي الرشيد :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر المريض الى وجوه العود

قال الاصمعي : قد يكره تشبيه الممدوح بالمريض . ومثله قول ابي محجن الثقفي في قينة :

وترجع العود احيانا وتحفظه كما يطير ذباب الروضة الغرد

فان القينة لم ترض ان تشبه نفسها بالذباب . ولذلك رغب المولدون عن تشابيه العرب لانها مع عقادة التركيب لم تسفر عن كبير امر فخالفوها في كثير من الشعر الى ما هو اليق بالوقت وامس باهله

البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ اَلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ اَلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ اَلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ اَلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدَّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ اَلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ اَلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ اَلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ اَلدِّينِ بِاَلْبَرَاهِينِ اَلْعَقْلِيَّةِ اَلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ اَلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا اَلنَّوْعِ قَوْلُ اَلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي اَلْاَرْضِ وَاَلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا اَللّٰهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ اَلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ اَللّٰهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا اَلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ اَلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ اَلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى اَلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اَللّٰهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ اَلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ

وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ اَمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ اَلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَاِخْوَانٌ اِذَا مَا مَدَحْتَهُمْ اَحَكَّمُ فِي اَمْوَالِهِمْ وَاُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ اَرَاكَ اَصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ اَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ : اَنْتَ اَحْسَنْتَ اِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَاَنَا اَحْسَنُ اِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا اَنَّ مَدْحَ مَنْ اَحْسَنْتَ اِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ اَحْسَنَ اِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا . قَالَ اَبْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ اَمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى اِذَا قَلَّ مِنْ اَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ اِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِالْخَيْرِ . وَنَفْسٌ اَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِالسُّوءِ . وَٱلْاِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْاَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا اُخْرَى . وَاَنْتَ اِذَا اَمَرَتْكَ ٱلْاَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ اِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَاَنْتَ اَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَاَعْلَمْ اَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ اِمَّا حَمْلِيٌّ . وَاِمَّا شَرْطِيٌّ . فَٱلْاَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى اَنَّ اَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ اَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ اَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ اِلَيْكَ . فَاَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ اَلْزَمَهُ فِيهِ اَنَّ ٱلْحَيَّ اِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي اِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اَوْضَحُ دَلَالَةً فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ وَاَعْذَبُ فِي ٱلذَّوْقِ وَاَسْهَلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ. فَاِنَّهُ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ بَعْدَ (لَوْ) وَجَوَابِهَا. وَهٰذِهِ ٱلْجُمْلَةُ عَلَى اصْطِلَاحِهِمْ مُقَدَّمَةٌ شَرْطِيَّةٌ مُتَّصِلَةٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ ٱلْحُكْمِ كَمَا جَاءَ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا اَعْلَمُ (يُرِيدُ اُمُورَ ٱلْآخِرَةِ) لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ يُقَالَ : لٰكِنَّكُمْ ضَحِكْتُمْ كَثِيرًا وَبَكَيْتُمْ قَلِيلًا فَلَمْ تَعْلَمُوا مَا اَعْلَمُ

وَلَقَدْ زَادُوا عَلَى هٰذَيْنِ ٱلْقِيَاسَيْنِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْفِقْهِيَّ وَذٰلِكَ اَنْ يُقَاسَ فَرْعٌ عَلَى اَصْلٍ بِجَامِعٍ بَيْنَهُمَا فَيَلْزَمُ لِلتَّسَاوِي فِي ٱلْحُكْمِ. كَمَا يُحْكَى اَنَّ ٱلْوَلِيدَ قَالَ لِبَعْضِهِمْ : اَنْشِدْ مِنْ قَوْلِكَ فِي ٱلْخَمْرِ . فَاَنْشَدَهُ :

كُمَيْتٍ اِذَا سُحَّتْ وَفِي ٱلْكَأْسِ وِرْدُهَا
لَهَا فِي عِظَامِ ٱلشَّارِبِينَ دَبِيبُ
تُرِيكَ ٱلْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهْيَ دُونَهُ
لِوَجْهِ اَخِيهَا فِي ٱلْاِنَاءِ قُطُوبُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْوَلِيدُ : شَرِبْتَهَا وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ. فَقَالَ : اَيْنَ كَانَ وَصْفِي لَهَا رَابَكَ لَقَدْ رَابَنِي مَعْرِفَتُكَ بِهَا . (يَقُولُ) : كَمَا اَنَّ مَعْرِفَتِي بِوَصْفِهَا رَابَتْكَ كَذٰلِكَ مَعْرِفَتُكَ بِهَا رَابَتْنِي

الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوّل

في تمييز الكلام جيّده من رديئه ونادره من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدَكَ اللهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفْظِهِ وَاِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَاسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلَاحَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي اَلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ اَلْمَنْظُومَ مِثْلَ اَلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاِذَا كَانَ اَلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِاَلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِالتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ اَلْاَوَّلِ :

هُمُ اَلْاُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ ... فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ ... وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا ... وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِنَ اَلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادِ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لَدَى ٱلْحَقِّ مُجْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي رَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلَكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلَكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَلَسْتُ بِجَابِيْ ابَدًا طَعَامًا حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَاِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَاِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ . فَاِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ . وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ . وَسَلِمَ مِنْ سَخْفِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ . وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ . وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ . وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَافِي ٱلْبَشِعِ . وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفُرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ . وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ . وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْضَرُّ لِلْمُنْتِنِ . وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ . وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ . وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ . وَٱلْفَمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ اِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي اِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ . وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ اِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ . وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي اِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَاِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَتَرَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ اَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى اِلَّا اَنْ يَكُونَ صَوَابًا . وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . اَلَا تَرَى

إلى قول حبيب :

سُتَسْلِمُ لله سائِسُ أُمَّةٍ بِذَوِي تُجَهِّضُهَا لَهُ اسْتِسْلَامُ

فيه صَوابُ اللَّفظِ وليس هو بِحَسَنٍ ولا مَقْبُولٍ . ومِنَ الدَّليلِ على انَّ مَدارَ البَلاغَةِ على تَحْسِينِ اللَّفظِ انَّ الخُطَبَ الرَّائعَةَ والأشعارَ الرَّائقَةَ ما عُمِلَتْ لإفهامِ المَعاني فقطْ لأنَّ الرَّديءَ من الألفاظِ يَقُومُ مَقامَ جَيِّدِها في الإفهامِ وانَّما يَدُلُّ حُسْنُ الكَلامِ واحكامُ صَنْعَتِهِ ورَوْنَقُ ألفاظِهِ وجَوْدَةُ مَطالِعِهِ وحُسْنُ مَقاطِعِهِ وبَديعُ مَبادِئِهِ وغَريبُ مَبانِيهِ على فَضْلِ قائِلِهِ وفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وأكثرُ هذهِ الأوصافِ تَرْجِعُ الى الألفاظِ دُونَ المَعاني . وتَوَخِّي صَوابِ المَعْنَى أحسنُ من تَوَخِّي هذهِ الأُمورِ في الألفاظِ . فلهذا تَأنَّقَ الكاتِبُ في الرِّسالَةِ والخَطيبُ في الخُطْبَةِ والشَّاعِرُ في القَصيدَةِ وهُمْ يُبالِغُونَ في تَجْويدِها . ويَغْلُونَ في تَرْتيبِها ليَدُلُّوا على بَراعَتِهِمْ وحِذْقِهِمْ بِصِناعَتِهِمْ . ولَوْ كانَ الأمرُ في المَعاني لَطَرَحُوا أكثرَ ذلكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كثيرًا واسْقَطُوا عَنْ أنفُسِهِمْ تَعَبًا طَويلًا . ولِهذا دَليلٌ آخَرُ : انَّ الكَلامَ اذا كانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وسَلِسًا سَهْلًا ومَعْناهُ وَسَطًا دَخَلَ في جُمْلَةِ الجَيِّدِ وجَرَى مَعَ الرَّائعِ النَّادِرِ كقَوْلِ الشَّاعِرِ :

ولَمَّا قَضَيْنا مِنْ مِنًى كُلَّ حاجَةٍ ومَسَّحَ بِالأرْكانِ مَنْ هُوَ ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارِي رِحالُنا ولَمْ يَنْظُرِ الغادِي الَّذي هُوَ رائحُ
أخَذْنا بِأطْرافِ الأحاديثِ بَيْنَنا وسالَتْ بِأعْناقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

وليس تَحْتَ هذهِ الألفاظِ كَبيرُ مَعْنًى وهِيَ رائقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وانَّما

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَاللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا ... مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسُ إِلَّا أَنَا

شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ مَرَابِيلَهُ ... وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زَيْمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ ... رَحِمَ ٱللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ

يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي ... يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصِدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عُمَرَ ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ لِخَالِهِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ

صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ ٱلْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا ٱلشِّعْرُ ٱلْحَسَنُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّهْلُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَذْبُ ٱلْمُسْتَمَعِ ٱلْقَلِيلُ ٱلنَّظِيرِ ٱلْعَزِيزُ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُطْمِعُ ٱلْمُمْتَنِعُ ٱلْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ ٱلصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا ٱلْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلسَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَٱلْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي ٱلْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ ٱلْمُطْمِعِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ ٱلَّذِي طَلَبَ ٱلْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْضَى

رِدْ حِيَاضَ ٱلْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ ٱلرَّاغِبِينَ طُولًا وَعِرْضَا

هُوَ أَنْدَى مِنَ ٱلْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ ٱلْحُسَامِ وَأَمْضَى

يَتَوَخَّى ٱلْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ ٱلْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا

فَضَّلَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى ٱلنَّاسِ فَرْضَا

وَأَرَى ٱلْمَجْدَ بَيْنَ عَارِقَةٍ مِنْكَ م تُرْجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تَمْضِي

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ ٱلدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ ٱلدِّينِ رُشْدَا

أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م ٱلنَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَازْدَدْ ... مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا مِثَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا ... وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي ... شُكْرَ اِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَأَمَّا ٱلْجِزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ إِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجِزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ ... فَحَطَّ إِلَيْنَا ٱلْجِزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجِزْلُ
بِكَفَّيْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى ... وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْأَمْرُ ٱلْأَبِيُّ بِحَزْمِهِ ... إِذَا ٱلْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمِرَارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ :

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالٍ وَكَثْرَتِهِ ... قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهْوَ مَحْمُودُ
أَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدٍ سَلَفَتْ ... وَفِي أَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : أَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَأَسْرَفَ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ . وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ . وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ . وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ . وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَّا بِٱلْإِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ . وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِٱلِٱعْتِرَافِ . نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ . وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْخُنْكَةُ . وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْأَيَّامِ فَأَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ . فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وتُجدِّدَ النِّعمَةَ بإطراحِ الحِقْدِ فإنَّ قديمَ الحرمةِ وحديثَ التوبةِ يمحقانِ ما بينهما من الإساءةِ . فإنَّ أيامَ القُدرةِ وإنْ طالتْ قصيرةٌ والمُتعةَ بها وإنْ كثُرتْ قليلةٌ فعلتَ . وفي هذا الكلامِ وما قبلهُ قوةٌ في سهولةٍ . ومِمَّا هو أجزلُ من هذا قولُ الشَّعبيِّ للحجَّاجِ وأرادَ قتلَهُ لخروجِهِ عليهِ معَ ابنِ الأشعثِ : أجدبَ بنا الجنابُ وأخزنَ بنا المنزلُ واستحلسنا الحذرَ واكتحلنا السَّهرَ . وأصابتْنا فتنةٌ ولمْ نكنْ فيها بررةَ أنقياءَ ولا فجرةَ أقوياءَ . فعفا عنهُ . وأجودُ الكلامِ ما يكونُ جزلًا سهلًا لا ينغلقُ معناهُ ولا يستبهمُ مغزاهُ . ولا يكونُ مكدودًا مستكرهًا ومتوعرًا متقعرًا . ويكونُ بريئًا من الغثاثةِ عاريًا من الرَّثاثةِ . والكلامُ إذا كانَ لفظهُ غثًّا ومعرضهُ رثًّا كانَ مردودًا ولو احتوى على أجلِّ معنًى وأنبلهِ وأرفعهِ وأفضلهِ كقولهِ :

لمَّا أطعناكُمُ في سُخطِ خالقِنا ... لا شكَّ سُلَّ علينا سيفُ نقمتِهِ

وقولِ الآخرِ :

أرى رجالًا بأدنى الدِّينِ قد قنعوا ... ولا أراهمْ رضوا في العيشِ بالدُّونِ

فاستغنِ بالدِّينِ عن دُنيا الملوكِ كما ... استغنى الملوكُ بدُنياهمْ عنِ الدِّينِ

ولا يدخلُ هذا في جملةِ المختارِ ومعناهُ كما ترى نبيلٌ فاضلٌ جليلٌ . وأمَّا الجزلُ الرَّديءُ الفجُّ الذي ينبغي تركُ استعمالهِ فمثلُ قولِ تأبَّطَ شرًّا وكانَ خرجَ معَ صاحبينِ لهُ فقُتلا في الغزوِ ورجعَ هو سالمًا :

إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثةٍ ... أو اثنينِ مثلينا فلا أبتُ آمنا

ولمَّا سمعتُ العُوصَ تدعو تفغَّرتْ ... عصافيرُ رأسي من غُواةِ فراتِنا

وَحَثْحَثْتُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي هِجَفٌ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عَفَاءَهُ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفَيْفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا
أَرَجَّ زَلُوجٌ هِزْرَفِيٌّ زَفَازِفٌ هِزَفٌّ يَبُدُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجَلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ أَزِدتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمِلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمِدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِأَيِّ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِاسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ لَهُ اِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ اَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي اَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيُتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْاُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ .وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ. وَيَنْبَغِي اَنْ تُطْلَبَ ٱلْاِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ اِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَنْهِجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيُطْمَسَ نُورُهُ وَيَكُونَ فِيهِ اَقْرَبَ اِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ اِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَاَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَاَيْتُ . وَاِنَّمَا قَبُحَ لِاَنَّكَ اَفْسَدْتَ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّاْخِيرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ اَمْسِ وَاَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا. اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَاَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَاَشْبَاهُهُ وَاَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ اِنْ جَازَ اَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَاَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَاِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنهُما مَعْنًى عَلَى حِيالِهِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَعْضَها عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صارَا كَلَامًا وَاحِدًا. وَمِنها ٱلْغَلَطُ وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : ضَرَبَنِي زَيْدٌ . وَاَنْتَ تُرِيدُ : ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَغَلِطْتَ . فَاِنْ تَعَمَّدْتَ ذٰلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهْتُ عَلَى اَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ اَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَجْتَنِبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بَوَاضِعِ ٱلصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا. وَلِيَكُونَ فِيمَا اَوْرَدْتُ دَلَالَةٌ عَلَى اَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِٱلْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَلَمْ تَسْاَلِ ٱلرَّبْعَ ٱلْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا كَاَنِّي اُنَادِي اَوْ اُكَلِّمُ اَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْفَاسِدِ لِاَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَاَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَٱلَّذِي جَاءَ بِهِ اِمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَقْلُوبٌ . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي اِمْرَاَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ اِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

كَاَنِّي اُنَادِي صَخْرَةً حِينَ اَعْرَضَتْ مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ ٱلْمَرْاَةَ عِنْدَ ٱلسُّكُوتِ وَٱلتَّغَافُلِ بِٱلصَّخْرَةِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ اِبْنِ اَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ ٱلْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا وَدِرَاسَ اَعْوَصِ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ اَنَّ ٱلْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَٱلْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ اَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَاَصْلُهُ : رَنْدَهْ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ اَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ اَنَّ ٱلرُّمَّانَ وَٱلتُّفَّاحَ اَنَابِيبُ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلْاَنَابِيبَ ٱلطَّرَائِقُ ٱلَّتِي فِي ٱلرُّمَّانِ . وَاِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ صَحَّ ٱلْمَعْنَى . وَمِمَّا اُخِذَ عَلَى

اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ قَوْلُهُ فِي اَلْفَرَسِ :

فَلِلسَّوْطِ اُلْهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ اَخْرَجَ مُهْذِبِ

فَلَوْ وَصَفَ اَخَسَّ حِمَارٍ وَاَضْعَفَهُ مَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ . وَاَلْجَيِّدُ قَوْلُهُ :

عَلَى سَابِحٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ اَفَانِينَ جَرْيٍ غَيْرِ كَزٍّ وَلَا وَانِي

وَمَا سَمِعْنَا اَجْوَدَ وَلَا اَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ : اَفَانِينَ جَرْيٍ. وَقَوْلُ عَلْقَمَةَ :

فَاَدْرَكَهُنَّ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ يُرُّ كَمَرِّ اَلرَّائِحِ اَلْمُتَحَلِّبِ

فَاَدْرَكَ طَرِيدَتَهُ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَمْ يَضْرِبْهُ بِسَوْطٍ وَلَمْ يُمِرَّهُ بِسَاقٍ وَلَمْ يَزْجُرْهُ بِصَوْتٍ وَمِمَّا يُعَابُ قَوْلُ اَلْاَخْطَلِ :

وَقَدْ جَعَلَ اَللّٰهُ اَلْخِلَافَةَ مِنْهُمْ لَا بُلَجَ لَا عَارِي اَلْخَوَانِ وَلَا جَدْبِ

يَقُولُهُ فِي عَبْدِ اَلْمَلِكِ . وَمِثْلُ هٰذَا لَا يُمْدَحُ بِهِ اَلْمُلُوكُ . وَاِنَّمَا تُمْدَحُ اَلْمُلُوكُ بِمِثْلِ قَوْلِ اَلشَّاعِرِ :

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ اَلصُّغْرَى اَجَلُّ مِنَ اَلدَّهْرِ

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ اَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا عَلَى اَلْبَرِّ كَانَ اَلْبَرُّ اَنْدَى مِنَ اَلْبَحْرِ

وَمِنَ اَلْخَطَإِ قَوْلُ جُنَادَةَ :

مِنْ حُبِّهِ اَتَمَنَّى اَنْ يُلَاقِيَنِي مِنْ نَحْوِ بَلْدَتِهِ نَاعٍ فَيَنْعَاهُ

لِكَيْ يَكُونَ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ وَتَضْمِرَ اَلنَّفْسُ يَأْسًا ثُمَّ تَسْلَاهُ

فَاِذَا تَمَنَّى اَلْمُحِبُّ لِحَبِيبِهِ اَلْمَوْتَ فَمَا عَسَى اَنْ يَتَمَنَّى اَلْمُبْغِضُ لِبَغِيضِهِ .

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ :

اَلَا لَيْتَنَا عِشْنَا جَمِيعًا وَكَانَ بِي مِنَ اَلدَّاءِ مَا لَا يَعْرِفُ اَلنَّاسُ مَا بِيَا

فَهٰذَا اَقْرَبُ اِلَى اَلصَّوَابِ وَلَوْ اَنَّ جُنَادَةَ كَانَ يَتَمَنَّى وَصْلَهُ وَلِقَاءَهُ

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ . كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبِّرَ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ تَحْجُوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى . وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ . وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ . وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : إِذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمِرَارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ . فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ . كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسِ ٱلرُّقَيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَالذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ.

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَنْسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى أَتَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ غُرِسَتْ أُرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفِسْفِسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا وَرَقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْحُنْدُسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ. وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعَصَامِيُّ كَٱلْمِظَامِيِّ. وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ. وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ. وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ. فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي. وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فَعَالُهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ اَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا عَلَى مَحَاسِنَ اَبْقَاهَا اَبُوكَ لَكَا

لَئِنْ تَقَدَّمَ اَبْنَاءُ ٱلْكِرَامِ بِهِ لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ ٱللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ اَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ اَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْاَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . اَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ اَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ

وَلَيْسَ بِاَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ اَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ اِنْ يَسْتَخْوِلُوا ٱلْمَالَ يَخْوَلُوا وَاِنْ يُسْئَلُوا يُعْطُوا وَاِنْ يَيْسُرُوا يُغْلُوا

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَاَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

فَلَمَّا اَسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

فَلَمْ يُخِلَّ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَاِنْ جِئْتَهُمْ اَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِاَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَاِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَائِدٌ رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضا بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يك من فضل اتوه فانما ... نوارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه ... وتغرس الا في منابتها النخل

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطر يوم اللقاء كانهم ... اسود لهم في غيل خفان اشبل
هم المانعون الجار حتى كانما ... لجارهم فوق السماكين منزل
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن ... كاوائلهم في الجاهلية اول
هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا ... اجابوا وان اعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وان احسنوا في النائبات واجملوا
ثلاث بامثال الجبال جباههم ... واحلامهم منها لدى الوزن اثقل

وكقول الآخر :

علم الغيث الندى حتى اذا ... ما حكاه علم البأس الاسد
فله الغيث مقر بالندى ... وله الليث مقر بالجلد

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به ويُنسب اليه. وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شلت يداك رميتها ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

فقال له الفضل قل : برمكية. فقد يشركنا في خالد بشر كثير ولا يشركنا في برمك احد

وَٱلْهِجَاءُ أَيْضًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَإِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا أَيْضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلِٱخْتِيَارُ أَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ إِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يَنْسُبَهُ إِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

فَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى ... بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ ... وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِبُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَآهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهُوَ حِذْقٌ ... وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ أَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ ... وَٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ ٱمِنُوا ... مِنْ لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ ٱعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ ... كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

اِنْ يَغْدِرُوا اَوْ يَجْبُنُوا اَوْ يَبْخَلُوا لَا يَخْفِلُوا
يَعْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِاَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرَّجُلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْاَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ اَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَاحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

اِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمَّرْتَ قَابُوسُ

اَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْاَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْاُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ حُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ اَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قَرٌّ وَقَدْ اَخْطَأَ . وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ اُتْرُجَّةً نَضْخُ ٱلْبَعِيرِ بِهَا كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْاَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ اَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ : (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ : (فِي الْأَنْفِ أَهْجَنُ) لِأَنَّ الشَّمَّ لَا يَكُونُ بِالْعَيْنِ . وَمِنَ الْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ :

تَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ
مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ : لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا . وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ الْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلْ

وَمِنَ الْمَعَانِي الْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

بِأَحْمَدَ الْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ قُمْ سَيِّدِي نَغِصَ جَبَّارُ السَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ . وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

غَنِيتَ عَلَى الْوَصْلِ الْقَدِيمِ غَنِيتَا وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا
وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَا لَفِي وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا
تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ وَمُتَّ عَنِ الْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ . بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ الدُّنْيَا وَالْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ : (مِنْ ظُلَمِ الْأَيَّامِ) كَانَ الْمَعْنَى مُسْتَوِيًا . وَسَمِعْتُ بَعْضَ الْأُدَبَاءِ يَقُولُ : وَمِنَ الْمَعَانِي الْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْبَازِي :

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تُهْدِي مِنْسَرًا كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ :

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَأَتَصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ الْجِيمَ اِذَا اُضِيفَ اِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرًا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

هُنَّ الْحَمَامُ فَاِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ اَنَّ الْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشَبِّهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا اَنَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفَّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ. وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ: فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ اِذَا اَرَدتَّ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ اَدَّاكَ الْحَمَامُ اِلَى الْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا اَنَّ الْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمَعْمَى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْاَسَدِ:

كَاَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةُ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْاَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ اَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي اَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ اَحَدٌ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا اَهْلِ ٱلْاِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَاِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرَّجَحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ اَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَاِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

اَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ اِطْفَاؤُهَا بِٱلدَّمْعِ اَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِاَنَّهُمْ قَدْ اَجْمَعُوا اَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ اَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْاَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ اِنَّ حَمْدَهُمْ مِنَ ٱلدُّرِّ مَا اَصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَاِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَاِذَا اُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّضُوعِ . وَمِنْ اَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَاِذَا اَصْفَرَّ اُحْتِيلَ فِي اِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَاسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ اَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ اَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَاَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْاَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا اَمْكَنَ رُكُوبُهُ. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَظِّمَ اَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِاَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا اَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هَا هُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَنَّ اَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

اَلَا مَنْ رَاَى قَوْمِي كَاَنَّ رِجَالَهُمْ نَخِيلٌ اَنَاهَا عَاضِدٌ فَاَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ

اِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ اَوْ لَاْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُخْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ اَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْاِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ اَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ اَكْثَرُ اَسْتِعْمَالًا وَاَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي . وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي اَسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذَكَرْتُ ٱلْآنَ ٱلْوَصْفَ وَتَرَكْتُ ٱلْمَرَاثِيَ وَٱلْفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي ٱلْمَدِيحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِٱلطَّهَارَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَٱلْمَرْثِيَةُ مَدْحُ ٱلْمَيِّتِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي ٱلْمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَأَنْتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَدِيحِ . إِلَّا أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَذْكُرَ ٱلْمَيِّتَ بِٱلْجُودِ وَٱلشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلْجُودُ وَهَلَكَتِ ٱلشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَإِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلْمَيِّتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنَّهُ لَا يُذْكَرَ أَنَّهُ يُبْكَى عَلَيْهِ مِثْلُ ٱلْخَيْلِ وَٱلْإِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ ٱغْتِبَاطُهَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ أَحْسَنَتِ ٱلْخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةٌ وَٱسْتَرَاحَتْ ... فَأَيْتَ ٱلْخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِٱلْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ ٱلْغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ ... وَطَاوِي ٱلْحَشَى نَائِي ٱلْمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ إِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ ٱلْكَلَامِ ٱسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ

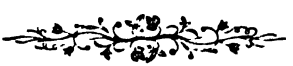

البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعمالهُ في تأليفهِ

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

اِذَا اَرَدتَّ اَنْ تَصْنَعَ كَلَامًا فَاَخْطِرْ مَعَانِيَهُ بِبَالِكَ وَتَنَوَّقْ لَهُ كَرَائِمَ اَللَّفْظِ وَاَجْعَلْهَا عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ لِيَقْرُبَ عَلَيْكَ تَنَاوُلُهَا وَلَا يَتْعِبَكَ تَطَلُّبُهَا . وَاَعْمِلْهُ مَا دُمْتَ فِي شَبَابِ نَشَاطِكَ فَاِذَا غَشِيَكَ اَلْفُتُورُ وَتَخَوَّنَكَ اَلْمَلَالُ فَاَمْسِكْ . فَاِنَّ اَلْكَثِيرَ مَعَ اَلْمَلَالِ قَلِيلٌ وَاَلنَّفِيسَ مَعَ اَلضَّجَرِ خَسِيسٌ وَاَلْخَوَاطِرَ كَاَلْيَنَابِيعِ يُسْقَى مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ فَتَجِدْ حَاجَتَكَ مِنَ اَلرِّيِّ وَتَنَالُ اَرَبَكَ مِنَ اَلْمَنْفَعَةِ. فَاِذَا اَكْثَرْتَ عَلَيْهَا نَضَبَ مَاؤُهَا وَقَلَّ عَنْكَ غَنَاؤُهَا. وَيَنْبَغِي اَنْ تَجْرِيَ مَعَ اَلْكَلَامِ مُعَارَضَةً فَاِذَا مَرَرْتَ بِلَفْظٍ حَسَنٍ اَخَذْتَ بِرَقَبَتِهِ اَوْ بِمَعْنًى بَدِيعٍ تَعَلَّقْتَ بِذَيْلِهِ . وَتَحَذَّرْ اَنْ يَسْبِقَكَ فَاِنَّهُ اِنْ سَبَقَكَ تَعِبْتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبْتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَلْحَقُهُ عَلَى طُولِ اَلطَّلَبِ وَمُوَاصَلَةِ اَلذَّأْبِ وَقَدْ قَالَ اَلشَّاعِرُ :

اِذَا ضَيَّعْتَ اَوَّلَ كُلِّ اَمْرٍ اَبَتْ اَعْجَازُهُ اِلَّا اَلْتِوَاءَ

وَقَالُوا : يَنْبَغِي لِصَانِعِ اَلْكَلَامِ اَنْ لَا يَتَقَدَّمَ اَلْكَلَامَ نَقْدًا وَلَا يَتَّبِعَ ذُنَابَاهُ تَتَبُّعًا وَلَا يَحْمِلَهُ عَلَى لِسَانِهِ حَمْلًا فَاِنَّهُ اِنْ تَقَدَّمَ اَلْكَلَامَ لَمْ تَتْبَعْهُ حَقِيقَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَاَعْجَفُهُ وَاَلشَّارِدُ مِنْهُ. وَاِنْ تَتَبَّعَهُ فَاتَتْهُ سَوَابِقُهُ وَلَوَاحِقُهُ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ جِيَادُهُ وَغُرَرُهُ . وَاِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسَانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ اَوْسَاقُهُ وَاَعْبَاؤُهُ وَدَخَلَتْ مَسَاوِيهِ فِي مَحَاسِنِهِ وَلَكِنَّهُ يَجْرِي مَعَهُ

فَلَا تَبِدْ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقِلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ اللَّفْظُ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلِّطُ الْمَلَلَ عَلَى قَلْبِهِ. وَالْإِكْثَارَ عَلَى تَفَكُّرِهِ فَيَأْخُذَ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرَ دَرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا. وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً إِنْشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ. فَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ. وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ. وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهْجِنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ الْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثٍ مَنَازِلَ. فَأَوَّلُ الثَّلَاثِ: أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا. فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

وَلَمْ تَصِلْ اِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْاَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ اَوْطَانِهَا . فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذٰلِكَ اَحَدٌ . وَاِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَاِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعْصَى عَلَيْكَ بَعْدَ اِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَاَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَاِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الْاِجَابَةَ وَالْمُوَاتَاةَ . وَاِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَاُجْرِيَتْ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ . فَاِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الْاِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ . اَيْ اَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ اِلَى اَشْهَى الصِّنَاعَاتِ اِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَاِنَّكَ لَمْ تُشْتَهَ اِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ اِلَّا اِلَى مَا شَاكَلَهُ وَاِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَاِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِخَزْنِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ اَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى اَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَاَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى اَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ اَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّمًا اَوِ ٱحْتَجْتَ اِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ اَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَحَطَّ اَلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ . . .

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ اِنَّ اَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمَجْلًى لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْفَرْقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْاَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ اِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمِلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . اِنْ اَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَاِنْ اَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَاِنْ اَوْمَاَ كَانَ مُقْنِعًا . وَاِنْ اَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَاِنْ اَمَرَ فَنَاصِحًا . وَاِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَاِنْ اَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَاِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ اِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ اَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِاَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَنْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَإِلَى جَنْبِ أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ أَوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ ٱلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرُ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ أَيْضًا فِي كُتُبِ ٱلْآدَبِ : إِنَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ أَسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ إِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَنِسَةٍ بِأَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى غَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَيْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلِّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْإِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْإِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَاخِرُ وَتَاَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . اَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . اَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . اَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . اَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ اَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى اَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : اِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي اَرْبَعَةِ اَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي اَرْبَعَةِ اَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ اَرْبَعَةَ اَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : اَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي اَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ اَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْاِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا اَحْسَنَ مَا اَشَارَ اَبُو ٱلتَّمَّامِ اِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا اَبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى وَٱللَّيْلُ اَسْوَدُ رُقْعَةُ ٱلْجِلْبَابِ

فَاِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْاَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ اَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ اَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْاَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

ٱلظَّلْمَاء بِطَلَائِعِ ٱلأَنْوَاءِ . وَبِدُونِ ذٰلِكَ يَنْقَسِمُ ٱلْفِكْرُ وَيَشْتَغِلُ ٱلْقَلْبُ وَوَسَطُ ٱللَّيْلِ خَالٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . وَلِهٰذَا خَصَّ أَبُو تَمَّام تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى عَادِلًا عَنِ ٱلطَّرَفَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ ٱلْمَذْكُورَةِ. وَحَكَتِ ٱلثِّقَاتُ عَنْ أَبِي عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي أَرُومُ ٱلشِّعْرَ وَكُنْتُ أَرْجِعُ فِيهِ إِلَى طَبْعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ أَكُنْ وَقَفْتُ لَهُ عَلَى تَسْهِيلِ مَأْخَذٍ وَوُجُوهِ ٱقْتِضَابٍ حَتَّى قَصَدْتُ أَبَا تَمَّامٍ وَٱنْقَطَعْتُ إِلَيْهِ وَٱتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ لِي: يَا أَبَا عِبَادَةَ تَخَيَّرِ ٱلْأَوْقَاتَ وَأَنْتَ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ ٱلْغُمُومِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَادَةَ فِي ٱلْأَوْقَاتِ إِذَا قَصَدَ ٱلْإِنْسَانُ تَأْلِيفَ شَيْءٍ أَوْ حِفْظَهُ أَنْ يَخْتَارَ وَقْتَ ٱلسَّحَرِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَقِسْطَهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ . وَصَفَا مِنْ أَكْثَرِ ٱلْأَبْخِرَةِ وَٱلْأَدْخِنَةِ جِسْمُ ٱلْهَوَاءِ . وَسَكَنَتِ ٱلْغَمَائِمُ . وَرَقَّتِ ٱلنَّسَائِمُ . وَتَغَنَّتِ ٱلْحَمَائِمُ . وَإِذَا شَرَعْتَ فِي ٱلتَّأْلِيفِ تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلْغِنَاءَ وِضْمَارُهُ ٱلَّذِي يَجْرِي فِيهِ . وَٱجْتَهِدْ فِي إِيضَاحِ مَعَانِيهِ . فَإِنْ أَرَدْتَ ذِكْرَ ٱلْأَحْبَابِ فَٱجْعَلِ ٱللَّفْظَ رَقِيقًا وَٱلْمَعْنَى رَشِيقًا وَأَكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ ٱلصَّبَابَةِ . وَقَلَقِ ٱلْأَشْوَاقِ . وَلَوْعَةِ ٱلْفِرَاقِ وَٱلتَّعَلُّلِ بِٱسْتِنْشَاقِ ٱلنَّسَائِمِ . وَغِنَاءِ ٱلْحَمَائِمِ . وَٱلْبُرُوقِ ٱللَّامِعَةِ . وَٱلنُّجُومِ ٱلطَّالِعَةِ . وَٱلتَّبَرُّمِ مِنَ ٱلْعُذَّالِ . وَٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْأَطْلَالِ . وَإِذَا أَخَذْتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَٱشْهَرْ مَنَاقِبَهُ وَأَظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَٱرْهَبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَٱرْغَبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَٱحْذَرِ ٱلْمَجْهُولَ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَإِيَّاكَ أَنْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِٱلْعِبَارَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَٱرْحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَأَخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِي قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا حَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا تَرَحَّتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتِّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ... إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعْلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعْرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي اَجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ . فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا . وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ . فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا . كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمِّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي ٱلْفَقِيهِ : إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ : أَلَا تَسْأَلُ . قَالَ : بَلَى ، مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ . قَالَ : إِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ . قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَغْرُبْ إِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ أَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ أَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ كَيْفَ أَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَأَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ إِلَى قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ . وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ أَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ أَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقْصِرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ إِلَى ٱلْجَوَابِ . وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَانْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَانْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي وَضْعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قُدِّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أُخِّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا تَزِرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللَّهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَاقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضَعِّفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمَحَجَّةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَرَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذَمَّ ٱلْكَلَامَ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

امْلَاهُ . وَانْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي خُطَبَاءِ اِيَادٍ :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمَلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ صَالِحٍ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ اِذَا اَقْلَلْتَ مِنَ الْكَلَامِ اَكْثَرْتَ مِنَ الصَّوَابِ . فَقَالَ : يَا اَبَتِ فَاِنْ اَنَا اَكْثَرْتُ وَاَكْثَرْتُ (يَعْنِي كَلَامًا وَصَوَابًا) . فَقَالَ : يَا بُنَيَّ مَا رَاَيْتُ مَوْعُوظًا اَحَقَّ بِاَنْ يَكُونَ وَاعِظًا مِنْكَ . وَاَنْشَدَتْ لِاَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ :

تَكَلَّمْ وَسَدِّدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَاِنَّمَا كَلَامُكَ حَيٌّ وَالسُّكُوتُ جَمَادُ

فَاِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ

وَقِيلَ لِاِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ اِلَّا كَثْرَةُ الْكَلَامِ . فَقَالَ : اَتَسْمَعُونَ صَوَابًا اَوْ خَطَأً . قَالُوا : لَا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ . وَقَالَ اَبُو عُثْمَانَ الْجَاحِظُ : لِلْكَلَامِ غَايَةٌ وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةٌ وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ الْاِحْتِمَالِ وَدَعَا اِلَى الْاِسْتِثْقَالِ وَالْمَلَالِ فَذٰلِكَ الْفَاضِلُ هُوَ الْهَذَرُ . وَصَدَقَ اَبُو عُثْمَانَ لِاَنَّ الْاِكْثَارَ مِنْهُ وَاِنْ كَانَ صَوَابًا يُمِلُّ السَّامِعَ وَيُكِلُّ الْخَاطِرَ وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ اِعْجَابٍ بِهِ لَوْلَاهُ قَصُرَ عَنْهُ . وَمَنْ اُعْجِبَ بِكَلَامِهِ اَسْتَرْسَلَ فِيهِ وَالْمُسْتَرْسِلُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرُ الزَّلَلِ دَائِمُ الْعِثَارِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ اُعْجِبَ بِقَوْلِهِ اُعِيبَ بِعَقْلِهِ وَلَيْسَ لِكَثْرَةِ الْهَذَرِ رَجَاءٌ يُقَابِلُ خَوْفَهُ وَلَا نَفْعٌ يُوَازِي ضُرَّهُ لِاَنَّهُ يُخَافُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّلَلَ وَمِنْ سَامِعِيهِ الْمَلَلَ وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَةِ هٰذَيْنِ حَاجَةٌ دَاعِيَةٌ وَلَا نَفْعٌ مَرْجُوٌّ . قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : اِذَا كَانَ الْاِيجَازُ كَافِيًا كَانَ الْاِكْثَارُ عِيًّا وَاِنْ

كَانَ ٱلٱكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبَلِّغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يَزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ : فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمَ جَاوَزَتْهُ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبْرِزُهُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا . وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ : مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلِ ٱلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِيَ بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلا لِأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ . وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ انْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي ٱلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ : لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ . فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجَهْدٍ وَتُدُوِّلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ ٱمْلَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ

إِرْجِعْ إِلَى خُلُقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ ٱمْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وَمِثَالُ ٱلتَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلٰهَنَا مَنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا فَأَحِطْ ذٰلِكَ ٱلسُّوءَ بِهِ وَأَرْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ ٱلتَّجْبِيلِ فِي أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ. وَٱنْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا ٱنْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ. ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئًا مِنْ سُوءِ ٱلصَّنْعَةِ) فَسُوءُ ٱلصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ ٱلتَّقْسِيمِ وَفَسَادُ ٱلتَّفْسِيرِ وَقُبْحُ ٱلْٱسْتِعَارَةِ وَٱلتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ ٱلنَّسْجِ وَٱلسَّبْكِ . فَإِذَا أَخَلَّ ٱلْكَاتِبُ بِذٰلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ. وَهُوَ أَيْضًا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مَزَجَ ٱلصَّفْوَ بِٱلْكَدَرِ وَخَلَطَ ٱلْغُرَرَ بِٱلْعُرَرِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَإِذَا أَرَادَ أَيْضًا تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ ٱلصَّنْعَةِ سَاءَ ٱخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَأَخَذَ ٱلرَّدِيءَ ٱلْمَرْذُولَ وَتَرَكَ ٱلْجَيِّدَ ٱلْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : ٱخْتِيَارُ ٱلرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي هٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ . وَقَوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ) فَٱلتَّعْقِيدُ وَٱلْإِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَبْهِمَ ٱلْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ
أَمَا لَوْ انَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا اذا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فِرِنْدَهُ شَحْذٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ
لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ
لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا تِ وَلَا يُوَحِّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) اَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : اِنَّ مَنْ اَعَارَهُ ٱللّٰهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَاَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ اِلَيْهِ ٱلْمَعَانِيَ وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ اَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَاَرَاحَ قَارِئَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَٱلْإِيجَازُ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ اِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ اَنْ يَعْمِدَ اِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيُفْهِمَهُ ٱلسَّامِعَ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ اَضْرُبٍ : اِثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَاَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : اِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ اَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَعْنِي فَتى لَمْ تَدْرِ اَلشَّمْسُ طَالِعَةً يَوْمًا مِنَ اَلدَّهْرِ اِلَّا ضَرَّ اَوْ نَفَعَا

فَقَوْلُهُ : (يَوْمًا مِنَ اَلدَّهْرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ لِاَنَّ اَلشَّمْسَ لَا تَطْلُعُ لَيْلًا . وَاَلضَّرْبُ اَلْآخَرُ اَلْعِبَارَةُ عَنِ اَلْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمْكِنُ اَنْ يُعَبَّرَ بِاَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ اَعْوَامٍ وَذَا اَلْعَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي اَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ اَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ اَلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا اَلْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَاَمَّا اَلضَّرْبُ اَلْمَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوَ اَنَّ اَلْبَاخِلِينَ وَاَنْتَ مِنْهُمْ رَاَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ اَلْمَطَالَا

قَوْلُهُ : (وَاَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ اِلَّا اَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي اَهْلُ اَلصَّنْعَةِ هٰذَا اَلْجِنْسَ اَعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ اَلْآخَرِ :

اِنَّ اَلثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتُهَا قَدْ اَحْوَجَتْ سَمْعِي اِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوردي باختصار)

اِنْ لَمْ يَفْهَمِ اَلْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ اَلسَّبَبِ اَلْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ اَلْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَاِنَّ بِمَعْرِفَةِ اَسْبَابِ اَلْاَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ اِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو اَلسَّبَبُ اَلْمَانِعُ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي اَلْكَلَامِ

ٱلْمُتَرْجَمِ عَنْهَا . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَإِنْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجَمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ : (أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ . وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصَّرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ إِلَى ٱلْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكِدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقْمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِغْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَإِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُحْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْأَكْثَرِ عَلَى ٱلْأَقَلِّ دَلِيلٌ . وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَلِيلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ ٱلْأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجَوْدَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلِٱسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (أَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ أَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْأَعْرَاضَ وَٱلْأَجْسَامَ أَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَأَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَأَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهَمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي أَرْبَابُهُ أَنَّهُ عِلْمٌ مَغُوزٌ . وَأَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَٱلصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا أَرْبَابُهَا أَسْمَاءً لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِأَوْسَامِهِ وَأَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مُنِعْتُ شَيْئًا فَأَكْثَرْتُ الْوُلُوعَ بِهِ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا

ثُمَّ لِيَكُونُوا بَرَاءً مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ إِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ وَأَشْبَاهُهُمَا مِنَ الرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ الرَّمْزِ الْخَفِيِّ إِلَى الْعِلْمِ الْجَلِيِّ . فَإِنَّ اغْرَاضَ النَّاسِ مَعَ اخْتِلَافِ اهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرِ سَالِمٍ وَإِخْفَاءِ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

السِّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا اسْتُعْمِلَ الرَّمْزُ مِنَ الْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ الْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ لِيَكُونَ أَحْلَى فِي الْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَأَحَلَّ فِي النُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِالرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي الصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَالَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورُسَ فِي وَصَايَاهُ الْمَوْزُونَةِ أَنَّهُ قَالَ : احْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ الْبَذَى وَأَوْزَانَكَ مِنَ الصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ الْمِيزَانِ مِنَ الْبَذَى حِفْظَ اللِّسَانِ مِنَ الْخَنَا وَبِحِفْظِ الْأَوْزَانِ مِنَ الصَّدَى حِفْظَ الْعَقْلِ مِنَ الْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا الرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ وَالْمَعْنَى الصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا اسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ الْمَحْجُوبَ عَنِ الْأَفْهَامِ كَالْمَحْجُوبِ عَنِ الْأَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّعْظِيمِ . وَفِي الْقُلُوبِ مِنَ التَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَاسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ اسْتِحْلَاوُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ. فَأَمَّا الْعُلُومُ الْمُنْتَشِرَةُ الَّتِي تَتَطَلَّعُ النُّفُوسُ إِلَيْهَا فَقَدِ اسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ الْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ الدَّاعِي إِلَيْهَا . عَنِ الِاسْتِدْعَاءِ إِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي التَّشَاغُلِ بِاسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْأَبْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهٰذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَأَمَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي أَهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَا يُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَأَهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ أَجْسَامِهِمْ إِلَى صِرَاعِ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ أَجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . ٱنْظُرْ إِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُلًا ... ٱبْنَ أُمِّ ٱبْنِ أَبِي أُخْتِ أَبِيهِ

مَعَهُ أُمُّ بَنِي أَوْلَادِهِ ... وَأَبَا أُخْتِ بَنِي عَمِّ أَخِيهِ

أَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ إِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ أَنَّهُ أَرَادَ مَيِّتًا خَلَّفَ أَبًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي أَفَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . أَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِهِ وَلَوْ أَنَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَأَخَّرَ مَا قَدَّمَ وَقَدَّمَ مَا أَخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ ٱلْأَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَأَتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمُ أَنْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَٱصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنُّوكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا إِلَى عِلْمِ مَا يَكُونُ ٱنْفَاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ أَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . أَوْ فَرْضٍ أَدَّاهُ . أَوْ مَجْدٍ أَثَّلَهُ .

أَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . أَوْ خَيْرٍ أَسَّسَهُ أَوْ عِلْمٍ اقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ الْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلَا وَأَسْبَابُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَرَاغِ

فَهَذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْكَلَامِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا الِاسْتِيفَاءُ وَالْكَشْفُ إِلَى الْإِغْمَاضِ . (وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ السَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي الْمَعْنَى الْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ أَوْ يَكُونَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ أَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَأَمَّا الْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَأَمَّا الْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ إِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَأَمَّا الْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي إِدْرَاكِهِ إِلَى زِيَادَةِ تَأَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا أَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا أَغْمَضَ . وَبِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ الِارْتِيَاضُ بِهِ وَبِالِارْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا اسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَإِنَّ الرِّيَاضَةَ جَرَاءَةٌ وَلِلدِّرَايَةِ تَأْثِيرًا . وَأَمَّا مَا كَانَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُومَ الْمُقَدِّمَةُ بِنَفْسِهَا وَإِنْ تَعَدَّتْ إِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَالْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ الْمُقَدِّمَةِ إِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّتِيجَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ الْمَعْنَى أَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَأَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِأَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

اِلَّا بِمُقَدِّمَتِهِ وَالْاِشْتِغَالُ بِهِ قَبْلَ الْمُقَدِّمَةِ عَنَاءٌ . وَاِتْعَابُ الْفِكْرِ فِي اسْتِنْبَاطِهِ قَبْلَ قَاعِدَتِهِ اَذى . فَهٰذَا يُوضِحُ تَعْلِيلَ مَا فِي الْمَعَانِي مِنَ الْاَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِهَا . (وَاَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ السَّبَبُ الْمَانِعُ لِعِلَّةٍ فِي الْمُسْتَمِعِ فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا مِنْ ذَاتِهِ . وَالثَّانِي مِن طَارِ عَلَيْهِ . (فَاَمَّا مَا كَانَ مِنْ ذَاتِهِ) فَيَتَنَوَّعُ نَوْعَيْنِ : اَحَدُهُمَا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ الْمَعْنَى . وَالثَّانِي مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ . فَاَمَّا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ الْمَعْنَى وَفَهْمِهِ فَهُوَ الْبَلَادَةُ وَقِلَّةُ الْفِطْنَةِ وَهُوَ الدَّاءُ الْعَيَاءُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : اِذَا فَقَدَ الْعَالِمُ الذِّهْنَ قَلَّ عَلَى الْاِعْتِمَادِ اِحْتِجَاجُهُ . وَكَثُرَ اِلَى الْكُتُبِ اِحْتِيَاجُهُ . وَلَيْسَ لِمَنْ بُلِيَ بِهِ اِلَّا الصَّبْرُ وَالْاِقْلَالُ . لِاَنَّهُ عَلَى الْقَلِيلِ اَقْدَرُ . وَبِالصَّبْرِ اَحْرَى اَنْ يُنَالَ وَيُظْفَرَ . وَاَمَّا الْمَانِعُ مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ فَهُوَ النِّسْيَانُ الْحَادِثُ عَنْ غَفْلَةِ التَّقْصِيرِ وَاِهْمَالِ التَّوَانِي فَيَنْبَغِي لِمَنْ بُلِيَ بِهِ اَنْ يَسْتَدْرِكَ تَقْصِيرَهُ بِكَثْرَةِ الدَّرْسِ وَيُوقِظَ غَفْلَتَهُ بِاِدَامَةِ النَّظَرِ . فَقَدْ قِيلَ : لَا يُدْرِكُ الْعِلْمَ مَنْ لَا يُطِيلُ دَرْسَهُ وَيَكُدُّ نَفْسَهُ . وَكَثْرَةُ الدَّرْسِ كُدُودٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ اِلَّا مَنْ يَرَى الْعِلْمَ غَنَمًا وَالْجَهَالَةَ مَغْرَمًا . فَيَحْتَمِلُ تَعَبَ الدَّرْسِ لِيُدْرِكَ رَاحَةَ الْعِلْمِ وَيَنْفِيَ عَنْهُ مَعَرَّةَ الْجَهْلِ . فَاِنَّ نَيْلَ الْعَظِيمِ بِاَمْرٍ عَظِيمٍ . وَعَلَى قَدْرِ الرَّغْبَةِ تَكُونُ الْمَطَالِبُ وَبِحَسَبِ الرَّاحَةِ يَكُونُ التَّعَبُ . وَقَدْ قِيلَ : طَلَبُ الرَّاحَةِ قِلَّةُ الْاِسْتِرَاحَةِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : اَكْمَلُ الرَّاحَةِ مَا كَانَتْ عَنْ كَدِّ التَّعَبِ وَاَعَزُّ الْعِلْمِ مَا كَانَ عَنْ ذُلِّ الطَّلَبِ . . .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَذْهَانِ فَأَجْعَلُوا ٱلْكُتْبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعِفْ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا
دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَاسِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمَلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ يُذْهِلُ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ يُغْنِ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ
إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فَتَأَلَّفُوهَا بِالْاِقْتِصَادِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّوَسُّطِ فِي التَّقْدِيمِ لِتَحْسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا. فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْمُسْتَمِعِ مِنَ الْاَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ الْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

اِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ اِذَا رَكِبَتْ اِحْدَاهُمَا الْاُخْرَى. فَسُمِّيَ الْكَلَامُ الْمُتَرَاكِبُ فِي الْفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ اَسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ. وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ اَبِي سُلْمَى فَقَالَ: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ. وَقَدِ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ الْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ اَبْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ: اَلتَّعَاظُلُ فِي الْكَلَامِ هُوَ اَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا اَعْرِفُ ذٰلِكَ اِلَّا فَاحِشَ الْاِسْتِعَارَةِ. كَقَوْلِ اَوْسِ بْنِ حَجَرٍ:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى الظَّبْيَ تَوْلَبًا وَالتَّوْلَبُ وَلَدُ الْحِمَارِ. وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ اَبْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ اِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ التَّرَاكُبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ

اِذَا رَكِبَتْ اِحْدَاهُمَا الْاُخْرَى . وَهٰذَا الْمِثَالُ الَّذِي مَثَّلَ بِهِ قُدَامَةُ لَا تَرَاكُبَ فِي الْفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَاَمَّا غَيْرُ قُدَامَةَ فَاِنَّهُ خَالَفَهُ فِيمَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اِلَّا اَنَّهُ لَمْ يَقْسِمِ الْمُعَاظَلَةَ اِلَى لَفْظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ وَلٰكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا . كَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ اِلَّا مُمَلَّكًا اَبُو اُمِّهِ حَيٌّ اَبُوهُ يُقَارِبُهُ

وَهٰذَا مِنَ الْقِسْمِ الْمَعْنَوِيِّ لَا مِنَ الْقِسْمِ اللَّفْظِيِّ . اَلَا تَرَى اِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقْدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَاْخِيرُهُ وَتَاْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ لِاَنَّ الْاَصْلَ فِي مَعْنَاهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ اِلَّا مُمَلَّكًا اَبُو اُمِّهِ اَبُوهُ . وَاِذْ حَقَّقْتُ الْقَوْلَ فِي بَيَانِ الْمُعَاظَلَةِ وَالْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَاَقُولُ : اِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مُعَاظَلَتَانِ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ (فَالْمَعْنَوِيَّةُ) اَنْ يُقَدَّمَ مَا الْاَوْلَى بِهِ التَّاْخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ الْكَلَامِ لِاَنَّ الْمَعْنَى مُخْتَلٌّ بِذٰلِكَ وَمُضْطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقْدِيمِ الصِّفَةِ اَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى الْمَوْصُوفِ وَتَقْدِيمِ الصِّلَةِ عَلَى الْمَوْصُولِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

فَقَدْ وَالشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءً بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَاِنَّهُ قَدَّمَ قَوْلَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهُوَ مَعْمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَدٍ عَلَى صُرَدٍ وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . اَلَا تَرَى اَنَّهُ لَا يَجُوزُ اَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوْضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ اَلْيَوْمَ . وَاِنَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ الْمَعْمُولِ بِحَيْثُ يَجُوزُ وُقُوعُ الْعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ الصِّفَةِ عَلَى مَوْصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ مَا اتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوْصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا النَّحْوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَأَنَّ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرُكِّبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا . . . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلِٱسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

اَ لَلَّفظِيِّ مِنَ اَلْمُعَاظَلَةِ) فَانِّي تَامَّلْتُهُ بِالْاِسْتِقْرَاءِ مِنَ اَلْاَشْعَارِ قَدِيمِهَا وَمُحْدَثِهَا وَمِنَ اَلنَّظَرِ فِي حَقِيقَتِهَا نَفْسِهَا فَوَجَدْتُهَا تَنْقَسِمُ اِلَى خَمْسَةِ اَقْسَامٍ : (اَلْاَوَّلُ) مِنْهَا يَخْتَصُّ بِاَدَوَاتِ اَلْكَلَامِ . مِنْ وَاِلَى وَعَنْ وَعَلَى وَاَشْبَاهِهَا . فَاِنَّ مِنْهَا مَا يَسْهُلُ اَلنُّطْقُ بِهِ اِذَا وَرَدَ مَعَ اَخَوَاتِهِ . وَمِنْهَا مَا لَا يَسْهُلُ بَلْ يَرِدُ ثَقِيلًا عَلَى اَللِّسَانِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ يَخُصُّهُ مِنَ اَلسَّبْكِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

اِلَى خَالِدٍ رَاحَتْ بِنَا اَرْحَبِيَّةٌ مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ

فَقَوْلُهُ : (مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا) مِنَ اَلْكَلَامِ اَلْمُتَعَاظِلِ اَلَّذِي تَثْقُلُ اَلنُّطْقُ بِهِ عَلَى اَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ هَاتَانِ اَللَّفْظَتَانِ وَهُمَا : مِنْ وَعَنْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَلَمْ يَثْقُلْ اَلنُّطْقُ بِهِمَا كَقَوْلِ اَلْقَائِلِ : مِنْ عَنْ يَمِينِ اَلطَّرِيقِ . وَاَلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ اَنَّهُمَا وَرَدَتَا فِي بَيْتِ اَبِي تَمَّامٍ مُضَافَتَيْنِ اِلَى لَفْظَةِ اَلْكَرَاكِرِ فَثَقُلَتْ مِنْهُمَا وَجَعَلَتْهُمَا مَكْرُوهَتَيْنِ كَمَا تَرَى وَاِلَّا فَقَدْ وَرَدَتَا فِي شِعْرِ قَطَرِيِّ بْنِ اَلْفُجَاءَةِ فَكَانَتَا خَفِيفَتَيْنِ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ اَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَاَمَامِي

وَاَلْاَصْلُ فِي ذٰلِكَ رَاجِعٌ اِلَى اَلسَّبْكِ فَاِذَا سُبِكَتْ هَاتَانِ اَللَّفْظَتَانِ اَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مَعَ اَلْفَاظٍ تَسْهُلُ مِنْهُمَا لَمْ يَكُنْ بِهِمَا مِنْ ثِقَلٍ كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ قَطَرِيٍّ . وَاِذَا سُبِكَتَا مَعَ اَلْفَاظٍ تَثْقُلُ مِنْهُمَا جَاءَتَا كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ اَبِي تَمَّامٍ . وَمِنْ هٰذَا اَلْقِسْمِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ اَيْضًا :

كَاَنَّهُ لِاجْتِمَاعِ اَلرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ . . . .

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ. وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ اَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ اَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ اَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ. وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَٱزُورَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ : (وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ : فَإِنَّهُ اَتَى فِي إِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ اَلْفَاظِهَا. وَاَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ اَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ اَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ. وَمَا اَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيِّ مِنَ ٱلْكَلَامِ. . . وَاعْلَمْ اَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْاَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ. وَذَاكَ أَنَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ أَدْغَمُوهُ ٱسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي : (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَكَ . وَفِي : (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِي . وَكَذٰلِكَ قَالُوا : ٱسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَأَهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَعْدَدَ . وَٱسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَتْبَبَ . وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ أَبْدَلُوا أَحَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا : أَمْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ أَمْلَلْتُ . فَأَبْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ ٱلْأَلْفَاظُ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ . وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي أَبْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ :

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ : (نَذَرْتُ أَعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا . وَأَمَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ . فَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلْ سَلْ أَعِدْ زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنُ سُرَّ صِلِ

فَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَأَنَّهُ قَالَ : (أَفْعَلِ ٱفْعَلْ) هٰكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ ٱلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَأَطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَٱمْرِ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَٱبْرِ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ . وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ : لَبَدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةَ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ ٱبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمَرَّ تَهْفُو ذَوَابَتَاهُ عَلَى ٱسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسِدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللّٰهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَسْخَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدِ اَبِيّ غَرٍ وَافٍ لَخِي ثِقَةٍ جَعْدِ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

وَهٰذَا كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ الشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ الْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي الطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا النَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ الْقَوْلَ فِيهِ. وَغَايَةُ مَا يُقَالُ: اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ الْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا النَّوْعُ بِالْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ. اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ اشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ الْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا النَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ الْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ الْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ الْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا النَّوْعِ وَالَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ الْاَنْوَاعِ الْمَذْكُورَةِ. لِاَنَّ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ الْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا. وَاِذَا لَمْ يَكُنِ النَّاثِرُ اَوِ النَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا النَّوْعِ الَّذِي هُوَ الْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِالذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا

فَانَّ ٱلفَرقَ بَينَهُ وَبَينَ ٱلمُعَاظَلَةِ انَّ ٱلمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ امَّا فِي ٱلأَلفَاظِ اَوْ فِي ٱلمَعَانِي عَلَى مَا اَشَرتُ اِلَيهِ . وَهٰذَا ٱلنَّوعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَاِنَّمَا هُوَ اِيرَادُ ٱلفَاظٍ غَيرِ لَائِقَةٍ بِمَوضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ . وَهُوَ يَنقَسِمُ قِسمَينِ : اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفظَةِ ٱلوَاحِدَةِ وَٱلآخَرُ فِي ٱلأَلفَاظِ ٱلمُتَعَدِّدَةِ . (فَامَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفظَةِ ٱلوَاحِدَةِ) فَانَّهُ اِذَا وَرَدَ فِي ٱلكَلَامِ اَمكَنَ تَبدِيلُهُ بِغَيرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلكَلَامُ نَثرًا اَوْ نَظمًا . وَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلأَلفَاظِ ٱلمُتَعَدِّدَةِ فَانَّهُ لَا يُمكِنُ تَبدِيلُهُ بِغَيرِهِ فِي ٱلشِّعرِ بَل يُمكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثرِ خَاصَّةً لِاَنَّهُ يَعسُرُ فِي ٱلشِّعرِ مِن اَجلِ ٱلوَزنِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلقِسمِ ٱلاَوَّلِ قَولُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

فَلَا يُبرَمُ ٱلاَمرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلَا يَحلَلُ ٱلاَمرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبرِمُ

فَلَفظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَن مَوضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَندُوحَةٌ عَنهَا لِاَنَّهُ لَو ٱستَعمَلَ عِوَضًا عَنهَا لَفظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ . وَبَلَغَنِي عَن اَبِي ٱلعَلَاءِ : اَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِاَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى اَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسمِهِ وَكَانَ يَقُولُ : لَيسَ فِي شِعرِهِ لَفظَةٌ يُمكِنُ اَن يَقُومَ عَنهَا مَا هُوَ فِي مَعنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثلَهَا . فَيَا لَيتَ شِعرِي اَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلبَيتِ ٱلمُشَارِ اِلَيهِ لٰكِنَّ ٱلهَوَى كَمَا يُقَالُ اَعمَى . وَكَانَ اَبُو ٱلعَلَاءِ اَعمَى ٱلعَينِ خِلقَةً وَاَعمَاهَا عَصَبِيَّةً فَاجتَمَعَ لَهُ ٱلعَمَى مِن جِهَتَينِ . وَهٰذِهِ ٱللَّفظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجرِي مَجرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلاِستِعمَالِ وَهِيَ فَكُّ

ٱلْإِدْغَامِ فِي ٱلْفِعْلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ إِلَى ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَأَدْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَأَبِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ فِي ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ حَسَنٌ وَأَمَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِأَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلْفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ كَأَنَّهَا رُكْبَةُ ٱلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَصْلُ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ أَقْبَحُ لِأَنَّهُ أَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلْفَوَارِسَ كُلَّ يَوْمٍ طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱنْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱنْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللّٰهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ وَبِٱلْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَيْضًا اَنْ تُزَادَ ٱلْاَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ لَمَا زِلْتَ ٱلْعَيِدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ : (ٱلزَّائِرِينَ اَرْضَهُمْ اَوْ دَارَهُمْ اَوِ ٱلزَّائِرِينَ اِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْاَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَاِذَا حَذَفْتَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ اَيْضًا :

لَا خَلْقَ اَكْرَمُ مِنْكَ اِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَاِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَاَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْاَشْعَارِ كَثِيرٌ

الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

المبحث الاوّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا الْخَطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتَمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاجْمَعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيُحْسِنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ مَعْنًى . وَقَالُوا : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفْظِ وَلَطِيفِ ٱلْمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلِّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلْبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلْقُصْوَى ٱلْخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللَّهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلَّذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلْخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلْفَتْقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِأَحْمَلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلْقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَحِيلَةُ ٱلْفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلْأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأَرْبَعُ ٱلْأُخَرُ فَهُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تُفَضِّلُهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ

يَجِبُ نَوقِيفُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلْعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ أَهْلِهِ .
(وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لِأَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ
وَٱلْأَدَبِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِجِدَّةِ ذِهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ
وَأَدَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ إِلَى ٱلْإِسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا
عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلسُّوقَةِ وَٱلْعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ
ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ . وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ
مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْعَاهَا فِي
مُرَاسَلَتِكَ إِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ
وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوفِيَهُ نَصِيبَهُ . فَإِنَّكَ مَتَى أَهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَاضَعْتَهُ لَمْ
آمَنْ عَلَيْكَ أَنْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ
بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا بِمَنْ كَاتَبْتَهُ وَمُلْمِسًا بِمَنْ رَاسَلْتَهُ .
فَإِنَّ إِلْبَاسَكَ ٱلْمَعْنَى وَإِنْ صَحَّ وَصَرْفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ
ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَإِخْلَالٌ بِقَدْرِهِ
وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ وَنَقْصٌ بِمَا يَجِبُ لَهُ كَمَا أَنَّ فِي ٱتِّبَاعِ
تَعَارِيفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ
وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا إِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَإِسْقَاطًا لِحُجَّةِ أَدَبِهِمْ .
فَمِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ
ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْأُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : أَبْقَاكَ ٱللّٰهُ
طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا . وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : أَطَالَ
ٱللّٰهُ بَقَاءَكَ . وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ : أَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا . وَلٰكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

ارجح وزنا وانبه قدرا في المخاطبة كما انهم جعلوا : اكرمك الله وابقاك . احسن منزلا في كتب الفضلاء والادباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال ان يكون فداه من الخير كما يحتمل ان يكون فداه من الشر . على ان كتاب العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمود الوراق :

كل من حل سر من را من النا س ومن قد يداخل الاملاكا
لو راى الكلب ماثلا بطريق قال للكلب يا جعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله وامتع بك الا في الابن والخادم المنقطع اليك . واما في كتب الاخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . . . ولكل مكتوب اليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ان لا يجاوزه عنه ولا يقصر به دونه . وقد رايتهم عابوا الاخوص حين خاطب الملوك خطاب العوام في قوله :

واراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم اجلوا قدر الملوك ان يمدح بما تمدح به العوام لان صدق الحديث وانجاز الوعد وان كان من المدح فهو واجب على العامة . والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة . انما يحسن مدحهم بالنوافل لان المادح لو قال لبعض الملوك : انك لا تخون ما استودعت وانك لتصدق في وعدك وتفي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصِدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِأَلْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى مِنْ أَمِيرِ أَلْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ أَلْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ أَللَّفْظَةَ إِلَّا فِي أَلْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَلْكَيِّسَ هُوَ أَلْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ أَلنَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لِكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ أَلْعِلْمِ بِأَللُّغَةِ لِأَنَّ أَلْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى أَلْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ أَلْعَادَةُ مِنِ اسْتِعْمَالِهَا فِي أَلظَّاهِرِ إِذْ كَانَ اسْتِعْمَالُ أَلْعَامَّةِ لِهٰذِهِ أَلْكَلِمَةِ مَعَ أَلْحَدَاثَةِ وَأَلْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ أَلْقَدْرِ وَصِغَرِ أَلسِّنِّ . . . فَامْتَثِلْ هٰذِهِ أَلْمَذَاهِبَ وَاجْرِ عَلَى هٰذِهِ أَلْقَوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ أَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ أَلْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ أَللّٰهَ دَفْعَ أَلْمَحْذُورِ وَصَرْفَ أَلْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ أَلْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ أَلنِّعْمَةِ : (أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَأَلشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ أَلْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى أَلْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَتَحَفَّظَ بِهَا . فَإِنَّ أَلْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ أَلْمَعْنَى . وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي أَلرَّسَائِلِ اسْتِعْمَالُ أَلِاقْتِصَارِ وَأَلْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ أَلْخَاصِّ بِأَلْعَامِّ وَأَلْعَامِّ بِأَلْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

اَنْ يَجْتَنِبَ اللَّفْظَ الْمُشْتَرَكَ وَالْمَعْنَى الْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ اَيْضًا فِي الرَّسَائِلِ وَالْبَلَاغَاتِ الْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي الْاَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ لِاَنَّ الشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَالشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيَّدٌ بِالْوَزْنِ وَالْقَوَافِي. فَلِذٰلِكَ اَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ الْاَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَاغْتِفَرَ فِيهِ سُوءُ التَّظَلُّمِ وَاَجَازُوا فِيهِ التَّقْدِيمَ وَالتَّاْخِيرَ وَالْاِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ الْاِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي الرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي الْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي الرَّسَائِلِ اَنْ يُصَغَّرَ الْاِسْمُ فِي مَوْضِعِ التَّعْظِيمِ وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلَ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جَذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ اُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْاَنَامِلُ

وَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : اَنَا عُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ اَبُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي الرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي الْكَلَامِ اَيْضًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ اِيَّاكَ وَاَعْنِي اِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي الشِّعْرِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَاَحْمِلْ وَاَحْسِنْ فِي اَسِيرِكَ اِنَّهُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْبِرْ كَاِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ الْاَلْفَاظِ اَرْجَحَهَا لَفْظًا وَاَجْزَلَهَا وَاَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَاَكْرَمَهَا حَسَبًا وَاَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَاِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ الْلَّفْظَةَ قَبْلَ اَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ التَّصْرِيفِ اِذَا عَرَضَتْ . وَعَايِرِ الْكَلِمَةَ بِمِعْيَارِ اِذَا سَنَحَتْ . فَاِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ الْكَلَامِ اِذَا كَتَبْتَ : اَنَا فَاعِلٌ . اَحْسَنُ مِنْ اَنْ

تَكْتُبَ : اَنَا اَفْعَلُ . وَمَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ (اَسْتَفْعَلْتُ) اَحْلَى مِنْ (فَعَلْتُ) فَاَدِرِ الْكَلَامَ عَلَى اَعْكَانِهِ وَقَلِّبْهُ عَلَى جَمِيعِ وُجُوهِهِ فَاَيُّ لَفْظَةٍ رَاَيْتَهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي نَدَبْتَهَا اِلَيْهِ فَاَتْرِعْهَا اِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اَوْرَدْتَّهَا عَلَيْهِ وَاَوْقِعْهَا فِيهِ . وَلَا تَجْعَلِ اللَّفْظَةَ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَاِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ هَجَّنْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي حَاوَلْتَ تَحْسِينَهُ وَاَفْسَدْتَ الْمَكَانَ الَّذِي اَرَدْتَ اِصْلَاحَهُ فَاِنَّ وَضْعَ الْاَلْفَاظِ فِي غَيْرِ اَمَاكِنِهَا وَقَصْدَكَ بِهَا اِلَى غَيْرِ مَصَابِّهَا اِنَّمَا هُوَ كَتَرْقِيعِ الثَّوْبِ الَّذِي لَمْ يُشَابِهْ رِقَاعُهُ وَلَمْ تَتَقَارَبْ اَجْزَاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الْجِدَّةِ وَتَغَيَّرَ حُسْنُهُ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

اِنَّ الْجَدِيدَ اِذَا مَا زِيدَ فِي خَلَقٍ ... يَبِينُ لِلنَّاسِ اَنَّ الثَّوْبَ مَرْقُوعُ

كَذٰلِكَ كُلَّمَا اَحْوَلْتَ الْكَلَامَ وَعَذَبَ وَرَاقَ وَسَهُلَتْ مَخَارِجُهُ كَانَ اَسْهَلَ وَاَرْجَى فِي الْاَسْمَاعِ وَاَشَدَّ اتِّصَالًا بِالْقُلُوبِ وَاَخَفَّ عَلَى الْاَفْوَاهِ لَا سِيَّمَا اِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْبَدِيعُ تُتَرْجِمُ بِلَفْظٍ مُؤْنِقٍ شَرِيفٍ وَمُعَايِرًا بِكَلَامٍ عَذْبٍ لَمْ يَسِمْهُ التَّكْلِيفُ بِمِيسَمِهِ وَلَمْ يُفْسِدْهُ التَّعْقِيدُ بِاسْتِهْلَاكِهِ . . . وَقَدْ رَاَيْتُهُمْ شَبَّهُوا الْمَعْنَى الْخَفِيَّ بِالرُّوحِ الْخَفِيِّ . وَاللَّفْظَ الظَّاهِرَ بِالْجُثْمَانِ الظَّاهِرِ . وَاِذَا لَمْ يَنْهَضْ بِالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْجَزْلِ لَفْظٌ شَرِيفٌ جَزْلٌ لَمْ تَكُنِ الْعِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلَا النِّظَامُ مُتَّسِقًا . وَتَضَاؤُلُ الْمَعْنَى الْحَسَنِ تَحْتَ اللَّفْظِ الْقَبِيحِ كَتَضَاؤُلِ الْحَسْنَاءِ فِي الْاَطْمَارِ الرَّثَّةِ . وَاِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى اَرْبَعَةُ اَصْنَافٍ : لَفْظٌ وَاِشَارَةٌ وَعَقْدٌ وَخَطٌّ . وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ اَرِسْطَاطَالِيسُ صِنْفًا خَامِسًا فِي كِتَابِ

ٱلْمَنْطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنَّصْبَةَ . وَٱلنَّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلْإِسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمَيِ

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامُ ٱلْمَطْبُوعُ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقَ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْسِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جَمِيلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُخْرَجِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَأَمَّا ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَأَتَوْا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورٌ ٱلنَّمِرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ أَجْمَعَ

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي إِحْكَامِ تَأْلِيفِهِ وَثَقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَأَمَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتْ أَصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي أَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَأَمَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَأُدَبَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِٱسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتَخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمُ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا أَكْثَرَ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْإِخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرَبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلِاكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْاَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْاَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ ٱلْغَرَضَ اَنْ يُجَانَسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوَجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِٱلْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتَ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتٍ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْاِعْرَابِ لَٱخْتَلَفَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلِٱزْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ اَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَانِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَانِي . وَٱنْصَرَفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَٱمْرَانِي وَمَوْزُرَاتٍ . مَعَ اَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيَهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْاِعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِاَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْاَوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلِ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَالْاَسْجَاعُ اَرْبَعَةُ اَنْوَاعٍ : اَلتَّرْصِيعُ وَالْمُتَوَازِي وَالْمُطَرَّفُ وَالْمُتَاوِزُ .
اَمَّا (اَلتَّرْصِيعُ) فَهُوَ اَنْ تَكُونَ اَلْاَلْفَاظُ مُسْتَوِيَةَ اَلْاَوْزَانِ مُتَّفِقَةَ اَلْاَعْجَازِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ اِلَيْنَا اِيَابَهُمْ . ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . وَقَوْلِهِ : اِنَّ اَلْاَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَاِنَّ اَلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . وَقَوْلِهِ : اَللّٰهُمَّ اَقْبِلْ تَوْبَتِي وَاَغْسِلْ حَوْبَتِي . وَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَفْتَخِرُ بِاَلْهِمَمِ اَلْعَالِيَةِ . لَا بِاَلرِّمَمِ اَلْبَالِيَةِ . وَقَوْلِهِمْ : حَتَّى عَادَ تَعْرِيضُكَ وَتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا . وَمِنَ اَلنَّظْمِ قَوْلُ اَلْخَنْسَاءِ :

حَامِي اَلْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ اَلْخَلِيقَةِ مَهْدِيِّ اَلطَّرِيقَةِ نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قَاصِيَةٍ حَزَّازِ نَاصِيَةٍ عَقَّادِ اَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارِ

وَكَقَوْلِ اَبِي فِرَاسٍ :

وَاَفْعَالُنَا لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ وَاَمْوَالُنَا لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَقَوْلِ اَلْاَبِيوَرْدِيِّ :

يَرُوحُ اَلَيْهِمْ عَازِبُ اَلْحَمْدِ وَافِيًا وَيَغْدُو عَلَيْهِمْ طَالِبُ اَلرِّفْدِ عَافِيًا

وَقَدْ يَجِيءُ مَعَ اَلتَّجْنِيسِ كَقَوْلِهِمْ : اِذَا قَلَّتِ اَلْاَنْصَارُ كَلَّتِ اَلْاَبْصَارُ . وَمَا وَرَاءَ اَلْخُلُقِ اَلذَّمِيمِ اِلَّا اَلْخُلُقُ اَلذَّمِيمُ . وَمِنَ اَلنَّظْمِ قَوْلُ اَلْمُطَرِّزِيِّ :

وَدُرُّ جَلَالِهِ اَبَدًا ثَمِينٌ وَدَرُّ سِوَالِهِ اَبَدًا غَزِيرُ

(وَاَلْمُتَوَازِي) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي اَلْكَلِمَتَيْنِ اَلْاَخِيرَتَيْنِ مِنَ اَلْقَرِينَتَيْنِ وَاَلْوَزْنُ مَعَ اِتِّفَاقِ اَلْحَرْفِ اَلْاَخِرِ مِنْهُمَا كَقَوْلِهِ : فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَاَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَقَوْلِهِ : اَللّٰهُمَّ اَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا .

وَاَعطِ تُمسِكًا تلفًا.وَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ : لَجَانِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ . إِلَى اَنْ اَنتَجِعَ اَرْضَ وَاسِطٍ . وَقَوْلِهِ : وَاَوْدَى ٱلنَّاطِقُ وَٱلصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا ٱلْحَاسِدُ وَٱلشَّامِتُ . (وَٱلْمُطَرَّفُ)وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى ٱلْحَرْفُ ٱلاَخِيرُ فِي كِلْتَا قَرِينَتَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ ٱلْوَزْنِ . كَقَوْلِهِ : مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا.وَقَدْ خَلَقَكُمْ اَطْوَارًا . وَقَوْلِهِمْ :خِيَامُهُ مَحَطُّ ٱلرِّحَالِ.وَمُخَيِّمُ ٱلْآمَالِ . (وَٱلْمُتَوَازِنُ) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي ٱلْكَلِمَتَيْنِ ٱلاَخِيرَتَيْنِ مِنَ ٱلْقَرِينَتَيْنِ ٱلْوَزْنُ مَعَ اخْتِلَافِ ٱلْحَرْفِ ٱلآخِرِ مِنْهُمَا . كَقَوْلِهِ : وَغَارِقٌ مَصْفُوقَةٌ.وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . وَقَوْلِهِمْ : اَصْبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلْقِتَالِ . وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ.وَشِدَّةِ ٱلْمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلْمِرَاسِ. فَاِنْ رَاعَى ٱلْوَزْنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلْقَرَائِنِ اَوْ اَكْثَرِهَا وَقَابَلَ ٱلْكَلِمَةَ مِنْهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزْنًا كَانَ اَحْسَنَ . كَقَوْلِهِ : وَاٰتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . وَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :اَسْوَدُ يَوْمِي ٱلْاَبْيَضُ وَاَبْيَضُ يَوْمِي ٱلْاَسْوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمُوَازَنَةَ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

فَقِفْ مُسْعَدًا فِيهِنَّ اِنْ كُنْتَ غَادِرًا

وَسِرْ مُبْعَدًا عَنْهُنَّ اِنْ كُنْتَ عَادِلًا

وَمِمَّا هُوَ شَرْطُ ٱلْحُسْنِ فِي هٰذَا ٱلْمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ اَسْمٌ جَامِعٌ لِلْمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ . فَٱلْمُلَاءَمَةُ تَأْلِيفُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُوَافِيَةِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي ضَرْبِ ٱلْاِعْتِدَالِ . كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلْمَرْءُ اِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَعُودُ رَمَادًا بَعْدَ اِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّأْلِيفَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَةِ وَهُوَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَأَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ أَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةُ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ أَيْضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ أَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ٱلْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِٱعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِٱعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفْظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشْرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَّالِثَةُ مِنْهَا خَمْسَ لَفَظَاتٍ اَوْ سِتًا لَمَا كَانَ ذٰلِكَ مَعِيبًا

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَخِرُ اَقْصَرَ مِنَ ٱلْاَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : اَنَّ ٱلسَّجْعَ يَكُونُ قَدِ ٱسْتَوْفَى اَمَدَهُ مِنَ ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجِيءُ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلْاَوَّلِ فَيَكُونُ كَٱلشَّيْءِ ٱلْمَبْتُورِ فَيَبْقَى ٱلْاِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ ٱلْاِنْتِهَاءَ اِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا

وَاِذَا ٱنْتَهَيْنَا اِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَّا اَقْسَامَ ٱلسَّجْعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ اَنَّ ٱلسَّجْعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ اَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً مِنْ اَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ ٱلْاَلْفَاظُ كَانَ اَحْسَنَ لِقُرْبِ ٱلْفَوَاصِلِ ٱلْمَسْجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ اَوْعَرُ ٱلسَّجْعِ مَذْهَبًا وَاَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ ٱسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ اِلَّا نَادِرًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلْاٰخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّهُ اَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا . وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجْعِ اَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صِيغَ بِاَلْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ ٱلسَّجْعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ ٱلْاَلْفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمَجَالِ فِي ٱسْتِجْلَابِهِ . وَاَمَّا ٱلطَّوِيلُ فَاِنَّ ٱلْاَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ ٱلسَّجْعُ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهْلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلْاَلْفَاظِ . اَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلْقَصِيرُ فَاَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ الْعَشَرَةُ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا السَّجْعُ الطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي الطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ السَّجْعِ الْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَالْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَالثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ الْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ الْعِدَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ

البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْاِيجَازُ حَذْفُ زِيَادَاتِ اَلْاَلْفَاظِ وَهٰذَا نَوْعٌ مِنَ اَلْكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرْسَانُ اَلْبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ اِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى . وَضَرَبَ فِي اَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِالْقِدْحِ اَلْمُعَلَّى . وَذٰلِكَ لِعُلُوِّ مَكَانِهِ . وَتَعَذُّرِ اِمْكَانِهِ وَاَلنَّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلَى اَلْمَعَانِي لَا اِلَى اَلْاَلْفَاظِ . وَلَسْتُ اَعْنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهْمِلَ اَلْاَلْفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ اَوْصَافِهَا اَلْحَسَنَةِ بَلْ اَعْنِي اَنَّ مَدَارَ اَلنَّظَرِ فِي هٰذَا اَلنَّوْعِ اِنَّمَا يَخْتَصُّ بِاَلْمَعَانِي . فَرُبَّ لَفْظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ . وَرُبَّ لَفْظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى قَلِيلٍ . وَمِثَالُ هٰذَا كَاَلْجَوْهَرَةِ اَلْوَاحِدَةِ بِاَلنِّسْبَةِ اِلَى اَلدَّرَاهِمِ . فَمَنْ يَنْظُرُ اِلَى طُولِ اَلْاَلْفَاظِ يُؤْثِرُ اَلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا . وَمَنْ يَنْظُرُ اِلَى شَرَفِ اَلْمَعَانِي يُؤْثِرُ اَلْجَوْهَرَةَ اَلْوَاحِدَةَ لِتَفَاسَتِهَا . قَالَ اَصْحَابُ اَلْاِيجَازِ : اَلْاِيجَازُ قُصُورُ اَلْبَلَاغَةِ عَلَى اَلْحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَ اَلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ اَلْهَذَرِ وَاَلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعْظَمِ اَدْوَاءِ اَلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ اَلصَّنَاعَةِ . وَفِي تَفْضِيلِ اَلْاِيجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ : اِنْ قَدَرْتُمْ اَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَاَفْعَلُوا . وَقَالَ

بَعْضُهُمْ : اَلزِّيَادَةُ فِي اَلْحَدِّ نُقْصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ اَلْاَمِينُ : عَلَيْكُمْ بِالْاِيجَازِ فَاِنَّ لَهُ اِفْهَامًا وَلِلْاِطَالَةِ اَسْتِبْهَامًا . وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : اَلْقَلِيلُ اَلْكَافِ . خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيْرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : اِذَا طَالَ اَلْكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ اَسْبَابُ اَلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ اَلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا اَلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : اَلْاِيجَازُ . قِيلَ : وَمَا اَلْاِيجَازُ . قَالَ : حَذْفُ اَلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ اَلْبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ اَلشِّعْرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلْقِلَادَةِ مَا اَحَاطَ بِالْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَسْتُ اَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلْفَرَزْدَقِ : مَا صَيَّرَكَ اِلَى اَلْقِصَارِ بَعْدَ اَلطِّوَالِ . قَالَ : لِاَنِّي رَاَيْتُهَا فِي اَلصُّدُورِ اَوْقَعَ وَفِي اَلْمَحَافِلِ اَجْوَلَ . وَقَالَتْ بِنْتُ اَلْحُطَيْئَةِ لِاَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ اَكْثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِاَنَّهَا بِالْآذَانِ اَوْلَجُ وَبِالْاَفْوَاهِ اَعْلَقُ . وَقَالَ اَبُوسُفْيَانَ لِاَبْنِ اَلزَّبَعْرِيِّ : قَصَّرْتَ فِي شِعْرِكَ . قَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلشِّعْرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ اَلذُّبْيَانِيِّ : اَلَا تُطِيلُ اَلْقَصَائِدَ كَمَا اَطَالَ صَاحِبُكَ اَبْنُ حُجْرٍ . قَالَ : مَنِ اَنْتَحَلَ اَنْتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعْضِ اَلْمُحْدَثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى اَرْبَعَةٍ وَاَثْنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِالْقُلُوبِ اَوْقَعُ وَاِلَى اَلْحِفْظِ اَسْرَعُ وَبِالْاَلْسُنِ اَعْلَقُ وَلِلْمَعَانِي اَجْمَعُ وَصَاحِبُهَا اَبْلَغُ وَاَوْجَزُ . وَقِيلَ لِاَبْنِ حَازِمٍ : اَلَا تُطِيلُ اَلْقَصَائِدَ . فَقَالَ :

اَبَى لِي اَنْ اُطِيلَ اَلشِّعْرَ قَصْدِي ... اِلَى اَلْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وَاِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفْتُ بِهِ اَلْفُضُولَ مِنَ اَلْجَوَابِ

فَأَبْعَثُهُنَّ أَرْبَعَةً وَسِتًّا مُثَقَّفَةً بِأَلْفَاظٍ عِذَابِ
وَهُنَّ إِذَا وَسَمْتُ بِهِنَّ قَوْمًا كَأَطْوَاقِ الْحَمَائِمِ فِي الرِّقَابِ

وَقَالَ عَلِيٌّ : مَا رَأَيْتُ بَلِيغًا قَطُّ إِلَّا وَلَهُ فِي الْقَوْلِ إِيجَازٌ وَفِي الْمَعَانِي إِطَالَةٌ . وَقِيلَ لِإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ غَيْرَ أَنَّكَ كَثِيرُ الْكَلَامِ . قَالَ : أَفَتَسْمَعُونَ صَوَابًا أَمْ خَطَأً . قَالُوا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ . وَلَيْسَ كَمَا قَالَ لِأَنَّ لِلْكَلَامِ غَايَةً وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةً . وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ الْاِحْتِمَالِ وَدَعَا إِلَى الْاِسْتِثْقَالِ وَصَارَ سَبَبًا لِلْمَلَالِ فَذَلِكَ الْهَذَرُ وَالْإِسْهَابُ وَالْخَطَلُ وَهُوَ مَعِيبٌ عِنْدَ كُلِّ لَبِيبٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْبَلَاغَةُ بِالْإِيجَازِ أَنْجَعُ مِنَ الْبَيَانِ بِالْإِطْنَابِ . وَقَالُوا : الْمُكْثَارُ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ . وَمِثْلُ الْإِيجَازِ الْحَسَنِ كَقَوْلِهِ : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . فَجَمَعَ جَمِيعَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ بِأَسْرِهَا . لِأَنَّ فِي الْعَفْوِ صِلَةَ الْقَاطِعِينَ وَالصَّفْحَ عَنِ الظَّالِمِينَ وَإِعْطَاءَ الْمَانِعِينَ . وَفِي الْأَمْرِ بِالْعُرْفِ تَقْوَى اللهِ وَصِلَةَ الرَّحِيمِ وَصَوْنَ اللِّسَانِ عَنِ الْكَذِبِ وَغَضَّ الطَّرْفِ عَنِ الْحُرُمَاتِ وَالتَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ يُلَابِسُ شَيْئًا مِنَ الْمُنْكَرِ . وَفِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ الصَّبْرُ وَالْحِلْمُ وَتَنْزِيهُ النَّفْسِ عَنْ مُقَابَلَةِ السَّفِيهِ بِمَا يُوتِغُ الدِّينَ وَيُسْقِطُ الْقُدْرَةَ . وَقَوْلُهُ : حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ . وَقَوْلُهُ إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا . وَقَوْلُهُ : نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ . وَقَوْلُهُ : تَرْكُ الشَّرِّ صَدَقَةٌ . فَمَعَانِي هَذَا الْكَلَامِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفَاظِهِ . وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ صِحَّةَ ذَلِكَ

فَحُلَّهَا وَٱبْنِهَا بِنَاءَ آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي أَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا أَعْطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبْنِ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تَلُمَّ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ : (فَلْيَبْنِ عَلَيْكَ) أَيْ فَلْيَظْهَرْ أَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) أَيْ ٱكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَأَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ) أَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلْ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ أَعْرَابِيٍّ : أُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِأَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . أَيْ يَقُونَ أَعْرَاضَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلّٰهِ فِي يَدِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : أَمَا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ . وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ .
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْأَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ فِي مَلَإٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَأَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ لَمْ يَقَعْ لِأَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ : ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّضَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْعَامِيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَانَتْ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ إِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تَجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةَ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ ٱلْعَامَّةَ إِلَى فَهْمِهِ أَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ إِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَأَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ أَنْ يُسْلَكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ أَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةَ كَلَامَهُ فَإِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ إِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَإِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَأَقْسَامِهِ وَنُوضِحْ ذٰلِكَ إِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ : حَدُّ ٱلْإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ يُدَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلْمُجَيِّرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طَلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصَفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طَلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا الرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجَيْرُ بِقَوْلِهِ : (طَلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَاصَاحِبِي وَيَاخَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَاِنْ قَوْلُهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَافَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَاغَيْرُ . اَلَا تُرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ اِلَى تَوْكِيدِ قَسَمٍ اِذْ لَا شَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ اَيْضًا :

اِذَا اَنَا لَمْ اَلْمَ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزْمِنَةِ كَانَتْ مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا اَحْسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا يَا صَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تُرْجَعِ

فَقَوْلُهُ : (يَا صَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى اِلَيْهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاعَيْبَ فِيهَا . لِاَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . . فَاعْلَمْ أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰذَا أَنَّ التَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ الْأَلْفَاظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي وَمَهْمَا أَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ اللَّفْظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي فَإِنَّ ذٰلِكَ اللَّفْظَ هُوَ التَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَأَمَّا الْإِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ أَنَّهُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ الْمُفْرَدُ وَالْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْكَلَامِ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَالْقِسْمُ الْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى التَّقْدِيرَ . (وَالْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى الْقَصْرَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ الَّذِي هُوَ الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي اسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ الْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَإِنَّ التَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ أَمَّا الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فَإِنَّهُ عَجِيبُ الْأَمْرِ شَبِيهٌ بِالسِّحْرِ وَذَاكَ أَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّمْتَ عَنِ الْإِفَادَةِ أَزْيَدَ لِلْإِفَادَةِ وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَأَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبِينًا إِذَا لَمْ تُبِنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَالْأَصْلُ فِي الْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَاِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ اَنَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ اِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَوَّلًا مِنَ ٱلطَّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْاِعْرَابِ كَقَوْلِنَا : اَهْلًا وَسَهْلًا . فَاِنَّ نَصْبَ ٱلْاَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ وَاِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَاِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْاِعْرَابِ وَاِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى اَيْ اِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْاُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْاَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَاِلَيْهِ اَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَاَنَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لا يزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال اتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والزكاة مغرما . وقوله : اياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تميزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك واحظ منك ومن عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك بي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت ... فان تأبت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثر ... اما الذي يطريهم فمقلل

وقول الآخر :

اهابك اجلالا وما بك قدرة ... علي ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس انك عندها ... قليل ولكن قل منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اصحابُ ٱلاِطناب: ٱلمنطقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِاِشْبَاعٍ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلاقْنَاعِ . وَاَفْضَلُ ٱلكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلاسْتِقْصَاءِ. وَٱلاِيجَازُ لِلخَوَاصِّ وَٱلاِطنَابُ مُشْتَرَكٌ فِيهِ ٱلخَاصَّةُ وَٱلعَامَّةُ وَٱلعَيِيُّ وَٱلفَطِنُ وَٱلرَّيِضُ وَٱلمُرْتَاضُ وَلِغَنَى مَا اُطِيلَتِ ٱلكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلقَوْلُ ٱلقَصْدُ اَنَّ ٱلاِيجَازَ وَٱلاِطنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلحَاجَةُ اِلَى ٱلاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلحَاجَةِ اِلَى ٱلاِطنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلاِطنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلاِطنَابِ اَخْطَاَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلاِيجَازِ: مَتَى كَانَ ٱلاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلاِكْثَارِ كَانَ ٱلاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى اِثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَاخْتَصَرَ ٱلآخَرُ. فَقَالَ لِلمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ: مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلمُطِيلِ: مَا

اَرَى مَوْضِعَ نُقْصَانٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْبَلَاغَةُ اَلْاِيجَازُ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاَلْاِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَلَا شَكَّ فِي اَنَّ اَلْكُتُبَ اَلصَّادِرَةَ عَنِ اَلسَّلَاطِينِ فِي اَلْاُمُورِ اَلْجَسِيمَةِ وَاَلْفُتُوحِ اَلْجَلِيلَةِ وَتَفْخِيمِ اَلنِّعَمِ اَلْحَادِثَةِ اَوِ اَلتَّرْغِيبِ فِي اَلطَّاعَةِ وَاَلنَّهْيِ عَنِ اَلْمَعْصِيَةِ . سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ مُشْبَعَةً مُسْتَقْصَاةً تَمْلَأُ اَلصُّدُورَ وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ اَلْقُلُوبِ . فَالْاِطْنَابُ بَلَاغَةٌ وَاَلتَّطْوِيلُ عِيٌّ . لِاَنَّ اَلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ مَا يَبْعُدُ جَهْلًا بِمَا يَقْرُبُ . وَاَلْاِطْنَابُ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ طَرِيقٍ بَعِيدٍ تَرَهٍ يَحْتَوِي عَلَى زِيَادَةِ فَائِدَةٍ . وَقَالَ اَلْخَلِيلُ : يُخْتَصَرُ اَلْكِتَابُ لِيُحْفَظَ وَيُبْسَطُ لِيُفْهَمَ . وَقِيلَ لِاَبِي عَمْرِو اَبْنِ اَلْعَلَاءِ هَلْ كَانَتِ اَلْعَرَبُ تُطِيلُ . قَالَ : نَعَمْ كَانَتْ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا . وَالْاِطْنَابُ اِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ اِيجَازٌ وَهُوَ فِي اَلْمَوَاعِظِ خَاصَّةً مَحْمُودٌ كَمَا اَنَّ اَلْاِيجَازَ فِي اَلْاِفْهَامِ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ . وَاَلْمَوْعِظَةُ كَقَوْلِهِ : اَفَاَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . اَوْ اَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ اَفَاَمِنُوا مَكْرَ اَللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْخَاسِرُونَ . فَتَكْرِيرُ مَا كَرَّرَ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ هَا هُنَا فِي غَايَةِ حُسْنِ اَلْمَوْقِعِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يُحْتَاجُ اِلَى اَلْاِكْثَارِ . قَالَ : اِذَا عَظُمَ اَلْخَطْبُ وَاَنْشَدَ :

صَمُوتٌ اِذَا مَا اَلدَّهْرُ زَيَّنَ اَهْلَهُ ... وَفَتَّاقُ اَبْكَارِ اَلْكَلَامِ اَلْمُحَبَّرِ

وَقَالَ آخَرُ :

يَرْمُونَ بِاَلْخُطَبِ اَلطِّوَالِ وَتَارَةً ... وَحْيَ اَلْمَلَاحِظِ خَشْيَةَ اَلرُّقَبَاءِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَلْ ... لَهُ ٱطِلِ ٱلْقَوْلَ ٱوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَعْذِرِ
فَإِنْ هُوَ ٱطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِيَ لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ ٱوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِيَ لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ ٱطَالُوا . وَإِذَا ٱنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ ٱضْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى ٱنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَٱنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَٱنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مَخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْمُطَوَّلَةَ مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ . وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْأَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وهٰكذا قولُ ابي تمام حبيبِ بنِ اوسٍ :

رُبَّ خفضٍ تحتَ السُّرى وغَناءٍ ومِن عَناءٍ ونَضرةٍ مِن شُحوبِ

والغَناءُ داخلٌ في الخفضِ والعَناءُ داخلٌ في السُّرى . وهٰذا يدلُّ على انَّ معظمَ المدارِ في البلاغةِ على تحسينِ اللفظِ لانَّ المعاني اذا دخلَ بعضُها في بعضِ هٰذا الضربِ من الدُّخولِ وكانتِ الالفاظُ مختارةً حسُنَ الكلامُ . واذا كانتِ المعاني مُرتَّبةً حسنةً والمعارضُ سيِّئةً كانَ الكلامُ مردودا فاعتمِدْ على ما مثَّلتُهُ لكَ وقِسْ عليهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذا النَّوعُ من الكلامِ انعمتْ نظري فيهِ وفي التَّكريرِ وفي التَّطويلِ فملكتني حيرةُ الشَّبهِ بينهما طويلا . ثمَّ وجدتُهُ انَّهُ ضربٌ مُفردٌ برأسِهِ لا يُشاركُهُ فيهِ غيرُهُ . لانَّ من التَّأكيدِ ما يتعلَّقُ بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ كما مرَّ وهٰذا الضَّربُ الَّذي هوَ الاطنابُ ليس كذٰلكَ . ورأيتُ علماءَ البيانِ قدِ اختلفُوا فيهِ فمنهم من الحقهُ بالتَّطويلِ الَّذي هوَ ضدُّ الايجازِ وهوَ عندهُ قسمٌ غيرُهُ فاخطأَ من حيثُ لا يدري كابي هلالٍ العسكريِّ والغانميِّ حتَّى انَّهُ قالَ : انَّ كُتبَ الفتوحِ وما جرى مجراها ممَّا يُقرأُ على عوامِّ الناسِ ينبغي انْ تكونَ مُطوَّلةً مُطنَبًا فيها . وهٰذا القولُ فاسدٌ لانَّهُ انْ عنى

بذلك انها تكون ذات معان متعددة قد استقصي فيها شرح تلك الحادثة من قبح او غيره فذلك مسلم . وان عنى بذلك انها تكون مكررة المعاني مطولة الالفاظ قصدا لافهام العامة فهذا غير مسلم . وهو مما لا يذهب اليه من عنده ادنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة . وعلى هذا فينبغي ان تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوام الناس وخواصهم ذات الفاظ سهلة مفهومة . وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير ذلك فانه بنجوة عن هذا الفن . وعلى هذا فان الاطناب لا يختص به عوام الناس وانما هو للخواص كما هو للعوام . وسأبين حقيقته واحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التي خبط ارباب علم البيان من اجلها وقالوا اقوالا لا تعرب عن فائدة . والذي عندي فيه : انه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا لمسماه وهو في اصل اللغة مأخوذ (من اطنب في الشيء) اذا بالغ فيه . ويقال : اطنبت الريح اذا اشتدت في هبوبها . واطنب في السير اذا اشتد فيه . وعلى هذا فان حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة في ايراد المعاني . وهذا لا يختص بنوع واحد من انواع علم البيان وانما يوجد فيها جميعا اذ ما من نوع منها الا ويمكن المبالغة فيه . واذا كان الامر كذلك فينبغي ان يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحقق افراده الا بذكر حده الدال على حقيقته . والذي يحد به ان يقال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حده الذي يميزه

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ اذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَإِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : ٱسْرِعْ ٱسْرِعْ . فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظُ وَاحِدٌ . وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ اِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ اِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَاذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ اِلَيْهَا فَإِنَّ مِثَالَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْاِيجَازُ هُوَ اَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَيْهِ وَٱلْاِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ اِلَيْهِ . اِلَّا اَنَّ طَرِيقَ ٱلْاِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزِهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْاِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ اَبْلَغُ لِاِتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . اَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَاَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ اَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

اِلَيْهَا وَيَقُولُ : اِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ اِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلْفَمِ . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ اِلَيْهِ فَيُؤَكِّدُ ٱلْأَمْرَ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَاِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا اَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ اَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ اَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا اُرِيدَ اِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى اِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ اُحْتِيجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ اِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ اَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى اِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ اَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي اِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَاِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ اَرْبَعَةٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . اِلَّا اَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ اِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبِلِ

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَاِحْسَانٍ اَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَاِحْسَانٍ اَغَرَّ مُحَجَّلٍ)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْإِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسَانٍ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ أَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلِٱشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ أَيْ أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ إِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنَابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفَهُ وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهُ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيهِ يُرْجَى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ تَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَضِيفُ طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْئَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرْجَى أَيْ أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى لِمَكَانِ رَجَائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذَا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْاِثْبَاتَ وَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْاِثْبَاتِ اَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ فِي اَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَاِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ اَوْكَدُ وُجُوهِهِ اَلَا تَرَى اَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ اِلَّا اَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي اَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ اِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبُ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ اِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَٱلْبَحْرِ اِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ اِلَّا اَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخْيِيلًا وَتَصْوِيرًا .

(الضَّرْبُ الرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوِيَ فِي مَعَانِيَ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ . وَهٰذَا اَصْعَبُ الضُّرُوبِ الْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمَعَانِي وَاَرْبَابُ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ الْخَاطِرُ الَّذِي يَقْذِفُ بِالدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ الْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ الْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ بِاَنَّ الْاِيجَازَ وَالْاِطْنَابَ وَالتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةٍ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ : وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ الْاَسَالِيبِ الثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ الْمَقْصِدِ الَّذِي تَسْلُكُ اِلَيْهِ الطُّرُقُ الثَّلَاثَةُ ...

فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ الْاِيجَازِ كِتَابُ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ اِلَى الْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَالسَّلَامُ . وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ الْاِخْتِصَارِ . وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ الْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْاِيجَازِ وَالْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِالْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ وَانْقَلَبَ بِاَلْيَدِ الْمَلْأَى وَالْعَيْنِ الْقَرِيرَةِ وَكَانَ اِنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَالْجَدُّ اَغْنَى مِنَ الْجَيْشِ . وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ . وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ . وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤْذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ الضِّبَاعُ الطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَاحْضِرْ خَاتَمَهُ وَهُوَ الْخَاتَمُ الَّذِي كَانَ الْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ اسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ الْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ الْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ. وَكَذَلِكَ الْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ. وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ كَلِيلٌ. وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَأَعْطَتْهُ الْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ الْآنَ مَصْرُفُونَ تَحْتَ الْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ السَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِاللِّوَاءِ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِاسْتِفْتَاحِ الْمَقَالِدِ وَاسْتِيطَاءِ الْمَنَابِرِ وَعَلَى اللَّهِ إِتْمَامُ النِّعَمِ الَّتِي افْتَتَحَهَا وَاجَابَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا وَالسَّلَامُ. وَهٰذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ الْإِجْمَالَ. وَلَوْ كُتِبَتْ عَلَى وَجْهِ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: أَصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَالْتَقَى عَسْكَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ الْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ الْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ الْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ النِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ الْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ الْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَاحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ الْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَالسِّبَاعِ وَالذِّئَابِ وَالضِّبَاعِ. وَانْجَابَتِ الْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ الْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَالسَّلَامُ. فَهٰذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ الْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَانْظُرْ إِلَى هٰذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

المبحث الاوّل

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ اَلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا اِذَا اَنْشَاَهُ وَبَدَاَهُ. وَيُقَالُ اَبْتَدَعَ اَلشَّيْءَ اِذَا اَخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَاَلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِاِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ اَلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيْضًا مِنْ صِيغَةِ اَلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ اَلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ اَللّٰهِ تَعَالٰى لِاِبْدَاعِهِ اَشْيَاءَ وَاِحْدَاثِهِ اِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَاَلْبَدِيعُ اَيْضًا اَلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : اَبْدَعَ اَلشَّاعِرُ اِذَا صَنَعَ اَلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ. وَاَمَّا اَلْبَدِيعُ اِصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي اَلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءَ. فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ. وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ اَلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ. وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقْ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَانَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ انَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَاَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِاَنَّ ٱلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمُ اعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَام ٱلْعَرَبِيّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاٰخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْاِسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ... وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضًا)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَاخَصُّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ اَنَّ ٱلْاَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِاَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِاَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ اِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ اِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَاِذَا عُلِمَتْ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْاِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْاِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللّٰهُ اَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ اَنَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ اِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ اِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا اَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِاعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ اَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِاعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . اَوْ

قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) أَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى أَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَطْ كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَأَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْإِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْأَبْيَنُ

البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعْلَمْ اَنَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَاَلَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِاللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) وَهُوَ اَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . اَمَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا. ثُمَّ اقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَابْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا اَبُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاَضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي اَحْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاَغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فَاَوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاَضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاَجْرَى تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وسماهُ ٱلتَّحْرِيرَ وهُوَ اَصَحُّ كِتَابٍ صُنِّفَ فِيهِ لِاَنَّهُ لَمْ يَتَّكِلْ عَلَى ٱلنَّقْلِ دُونَ ٱلنَّقْدِ . وذَكَرَ اَنَّهُ وَقَفَ عَلَى اَرْبَعِينَ كِتَابًا فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَٱلْبَدِيعِيَّاتُ ٱلْمَشْهُورَةُ هِيَ بَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ ٱلْاَدِيبِ صَفِيِّ ٱلدِّينِ ٱلْحِلِّيِّ سَمَّاهَا كَافِيَةَ ٱلْبَدِيعِيَّةِ وَشَرَحَهَا شَرْحًا حَسَنًا . حَذَا حَذْوَهُ ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْحُمَيْدِيُّ . وَبَدِيعِيَّةُ اَبِي جَعْفَرٍ اَحْمَدَ ٱلرَّعْنِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٧٩هـ (١٣٧٧ م) وَهٰذِهِ ٱلْبَدِيعِيَّةُ تُعْرَفُ بِبَدِيعِيَّةِ ٱلْعُمْيَانِ . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ شَمْسِ ٱلدِّينِ اَبِي عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدِ بْنِ جَابِرٍ ٱلْاَنْدَلُسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ عِزِّ ٱلدِّينِ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَوَجِيهِ ٱلدِّينِ ٱلْيَمَنِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى فِي حُدُودِ سَنَةِ ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ تَقِيِّ ٱلدِّينِ بْنِ حِجَّةَ ٱلْحَمَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) وَسَمَّاهَا ٱلتَّقْدِيمَ تَشْتَمِلُ عَلَى مِئَةٍ وَسِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ نَوْعًا ثُمَّ شَرَحَهَا شَرْحًا مُفِيدًا وَهُوَ مَجْمُوعُ اَدَبٍ قَلَّ اَنْ يُوجَدَ فِي غَيْرِهِ . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ جَلَالِ ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وَتُسَمَّى نَظْمَ ٱلْبَدِيعِ ثُمَّ شَرَحَهَا . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلْفَاضِلَةِ عَائِشَةَ ٱلْبَاعُونِيَّةِ نَظَمَتْهَا عَلَى مِثَالِ قَصِيدَةِ ٱلْحَمَوِي مَعَ عَدَمِ تَسْمِيَةِ ٱلنَّوْعِ . وَاَتَى بَعْدَهَا ٱلشَّيْخُ عَبْدُ ٱلْغَنِيِّ ٱلنَّابُلُسِيُّ وَنَظَمَ قَصِيدَتَيْنِ ٱلْتَزَمَ بِاِحْدَاهُمَا تَسْمِيَةَ ٱلنَّوْعِ

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ رُحْ بِي إِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجَبٌ وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا أَزَاحَ لَهُ تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِجُذْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

اِنِّي اَسْتَعَرْتُ جِيَادَ الدَّمْعِ فِي سَفَرِي جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُ بِاسْمِ اِبْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِاسْمِ اَبِي اِسْحَقَ يَامَعْنَوِيٌّ فِي الْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطِفِي كَادَ مُعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِمِ

الاستخدام

سَقَى الْاِلٰهُ اَلْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ قَدِ اسْـ ـتَخْدَمْتُهَا قَصْدَ اِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ الْعَنَاءَ وَلَا م اَلْبَقَاءَ فِي سَعَةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

اَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى يَاعَاذِلِي الْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ الْاُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ اِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَـهُ مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ فَالْقَلْبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ الذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ الْعَاذِلُ النَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَاتَّئِدْ وَاشْفَقْ وَلِنْ وَارِحْ فَوِّفْ وَوَشِّ وَجُدْ وَانْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

اَبَى نَوَالِيَ بِالتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا اَبَانَ وَالِيَ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو حُطَّةً وَجَدَى ... وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلْتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ ... عَرَّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كَرَبٍ بَرِّكْ اَخَا فَرَحٍ ... فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْاَفْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

المواربة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ ... فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَدْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ ... حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمَخَاصِمِ عَجْ ... زَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ ... فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ ٱسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي ... فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ ... فَقَالَ اَرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ ... سَالِ فَقُلْتُ لِحِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غِيبَتِهِ ... مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمِ اَنْتَ بَلْ شُغُلِ فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

اِنِّي اُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْمُحِبِّ اِذَا مَا شِبْتُ اَوْ عُدْتُ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ اَتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي اَصْطَفَاهُ هَوًى فَالْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ الْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ اَطْرَافِ اَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي اَبْلَغِ الْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ النَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ لَا فِي مَدِيحِ الظِّبَا وَالْغِيدِ لِلْحَتِمِ

الجناس الحالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِالْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَاَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِالسَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِعَرْضِ الْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ مَا مِثْلُكُمْ بِاحْتِمَالِ الضُّرِّ وَالرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ اِبْهَامُ نُصْحِي ذَا الْعَذُولَ وَكَمْ يَا لَيْتَ اِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

النزاهة

تَنَزَّهَتْ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ اِذْ لَمْ اَرَ الْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

اُغَايِرُ النَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ سَتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصّل

نَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبًّا بِهِمْ شُغِفَتْ فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُشْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ اِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِٱجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْاِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوَدَادَ لَهُ وَاَهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحَرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُخُبٍ كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرٍ م يِمِينِ ٱللهِ مُتَّحِمًا لِلْغُزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءَ زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ وَاِنْ اَرَدتَّ رِوَى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمَا لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى الرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِهِ فَاِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمَّع

قدْطَابَ لِلنَّفْسِ فِي ٱلْأَسْوَاءِ مَطْمَعُهَا بَلْ طَالَ فِيهَا وَلَمْ تَعْدِلْ إِلَى ٱلنَّدَمِ

الرجوع

مَا لِي رُجُوعٌ إِلَى حَالِي لِأُصْلِحَهَا بَلَى إِذَا مَعْ هُدَى رَبِّي سَعَى قَدَمِي

عتاب النفس

يَا نَفْسِ عِي وَٱرْعَوِي وَٱصْغِي إِلَى عَتَبِي حَتَّامَ أَنْتِ بِجَهْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

التسليم

هَبِي لِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمْتُ مُرْتَضِيًا فَمَا يَكُونُ جَوَابِي يَوْمَ مُحْتَكَمِي

القسم

فَلَا أُنِلْتُ ٱلْمُنَى إِنْ مِلْتُ مُتَّبِعًا هَوَاكِ فِي غَيْرِ مَا أَهْوَى وَذَا قَسَمِي

حسن التخلص

فَرَغْبَتِي وَٱلْهَوَى حُسْنُ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ إِثْمِي بِمَدْحِ وَسِيطِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطراد

يَسُوعُ بِكْرُ ٱلْإِلٰهِ ٱبْنُ ٱلْبَتُولِ سُلَا لَةُ ٱلْمُلُوكِ وَرَبٌّ فِي أَطْرَادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فَرْدٌ بِهِ تُحْصَرُ ٱلْأَنْصَارُ أَجْمَعُهُمْ فَٱلْجُزْءُ يُلْحَقُ بِٱلْكُلِّيِّ لِلْعِظَمِ

العكس

نَفْسُ ٱلْجَمَالِ جَمَالُ ٱلنَّفْسِ فِيهِ بَدَا يَا عَكْسَ مَنْ عَنْ سَنَا هٰذَا ٱلْجَمَالِ عَمِي

المماثلة

فَٱلْآبُ مَاثَلَهُ وَٱلرُّوحُ وَافَقَهُ وَٱلْكُنْهُ شَارَكَهُ بِٱلْعُظْمِ وَٱلْقِدَمِ

التفسير

كُنْهٌ ثُلَاثِيُّ أُقْنُومٍ يُفَسِّرُهُ آبٌ وَٱبْنٌ وَرُوحٌ فِي وَحِيدِهِمِ

المذهب الكلامي

فَمَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْتَقَدُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَالطُّهْرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي الْخَلْقِ وَالشِّيَمِ

ارسال المثل

فَالْحُسْنُ فِي الْخَلْقِ أَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَالْفَضْلُ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهُوَ الْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا الْبَدِيعُ سَنًى بِهِ الْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِالْوَاهِبِ النِّعَمِ مُ ابْنِ الْوَاهِبِ النِّعَمِ ابْنِ الْوَاهِبِ النِّعَمِ

الترتيب

لَهُ الْمَلَائِكُ وَالْإِنْسَانُ اجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمُ فِي التَّرْتِيبِ كَالْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا انْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ الْفِدَاءِ بَدَا بِنَا الْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى الْعَرِمِ

التكميل

أَوْفَى أَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا الْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ الظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى إِلَى الْمَنْهَجِ الْهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ الْخَلَاصُ اشْتُقَّ لِلْأُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ الْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ الضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئَانِ قَدْ اَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَالْبَحْرِ وَالدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ مَا بَيْنَ اُمَّتِهِ كَاللُّجِّ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي الْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَالطَّيُّ وَالنَّشْرُ وَالتَّبْدِيلُ مَكْرَمَةٌ لِلْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْاَحْوَالِ وَالشِّيَمِ

الايغال

فِي السَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا اِلَى الْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِالْوَعْظِ كَمْ نَجَتَتْ لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ اِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ الرِّمَمِ

التوشيع

نُوَشِّيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ مُثَبِّتُ الْاَمْجَدَيْنِ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَذْلِ كَالدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ الْجُودَ مَعْ بَسْطٍ لِرَاحَتِهِ لِلْعُودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ الصَّلْبِ فِي فِرَقٍ مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجِلْدُ وَٱلْهُزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ اِهَانَةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جُمْعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المتوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ وَٱلْفَدْغِ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتَ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ قُلْ كَٱلْخَلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ قَالُوا ٱسْقَمُ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا اَمَّا قِيَامَتُهُ فَاَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوَهَّمَ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى م ٱلْعُلَا اَرْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشَّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱللُّسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ وَتَلْمِذُوا عَمِدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبًّا كَمَالِهِمِ وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْسًا اَسْكَنُوهُ مَحَلَّ م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ اِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا اَدَبًا مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ كَمْ اَبْدَعُوا خُطَبًا فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَاَلَّفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اَللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْاَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا عِقْدَ التَّشِيدِ فَاعْجَبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَرًا اَضْحَى بِهِ غُرَرًا اَمْسَى لَنَا قَمَرًا فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَاللَّفْظُ لِلْحَمْدِ فِي الْأَفْوَاهِ مُؤْتَلِفٌ مَعْ لَفْظِ مَدْحٍ بَدَا مِنْ أَلْسُنِ الدِّيَمِ

الابداع

اِبْدَاعُ نَظْمِهِمِ دَمْعِي جَلَا وَحَلَا اِيدَاعُ نَثْرِهِمِ سَمْعِي كَمُنْتَظِمِ

التفريع

مَا نَسْمَةٌ حَمَلَتْ مِسْكًا لَطَائِفُهَا يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْ تَفْرِيعِ فَضْلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ مَدْحًا قَدْ خَصَصْتُ بِهِمْ لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى الْإِيفَاءِ بِالذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِالْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا فَرَاحَ يَرْفُلُ بِالْإِثْرَاءِ ذُو الْعَدَمِ

الكناية

تَرَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسْرِعُونَ إِلَى فُرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى الْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا فَعَادَ أَعْوَزُهُمْ بِالْعِزِّ وَالْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدْرِ غَدًا بِالْعِزِّ مُشْتَرَكًا صَدْرِ الْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُسْتَرْكِنٍ حَسَنٍ مُسْتَفْعِلِنْ فَاتِنٍ مُسْتَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمْعُ مُؤْتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُخْتَلِفٍ حُكْمًا وَفَضْلًا فَسِمْعَانٌ بِذَاكَ سَمِي

الايضاح

مَا بَيْنَهُمْ صَخْرَةٌ لِلْحَقِّ مُوضِحَةٌ بَنَى الْمَسِيحُ عَلَيْهَا بَيْتَ جَمْعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ وَمَنْ عَصَى اَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

اَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَأْتُ فِي كَلِمِي رَوَّيْتُ فِي قَلَمِي اَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

التوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْسَجِمٍ مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

مَجْمِعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا فَهُوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ وَهُوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهِ حِينَ رَكِبَهَا فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمَ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا يَاسَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ ٱلْخَصِمِ ... فَٱلْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَٱلْمَرْءِ فِي ٱلْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ ٱلْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا ... مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا ... مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا ... وَٱلْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي ٱضَمِ

التنكيت

دَعِ ٱلْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي ٱلْكَنِيسَةِ وَحْـ ... ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلضَّرَمِ

التوشيح

فَٱلرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا ... أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَٱسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ ٱلصِّفَاتِ وَقُلْ ... رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ ٱلشِّيَمِ

التعطف

فَٱخْتَارَ ذَاكَ ٱلصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا ... ٱلْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَٱعْطِفْ عَلَى ٱلْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْجَلِـلْ بِسَمَا ... وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ ٱلرَّبْطِ مِنْكَ رَمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجُدْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّـدُهُ ... مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى ٱلسَّقَمِ

المجاز

هِيَ ٱلْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ ٱلشِّفَاءِ هِيَ مِ ... ـنَ ٱلْعَرْشِ ٱلرَّفِيعِ وَبُرْجِ ٱلْبَارِئِ ٱلنَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا تَأَلُّفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُحْتَرَمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ أَمَا تَعِي أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُحَاكِمُهُمْ كَاللَّيْثِ كَالسَّيْفِ كَالْجَبَّارِ كَالضَّرَمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ يُشَاكِلُ الْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِالْكَرَمِ

معجز القلب

مُدْنٍ لِصَفْحِ جَنَاحَ الْقَلْبِ عَاطِفُهُ إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَالدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ النُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ وَلِلْعِدَا النَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ السَّمَاءِ بِهِ كَالْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ رَاعَى النَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ الْمِلْكُ وَالتَّفْرِيقُ يُظْهِرُ لِي فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ السَّلْبَ فِي اعْزَازِ عُصْبَتِهِ وَيُوجِبُ الذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي النِّقَمِ

المتقارب

اَرْجُوا التَّقَارُبَ مِنْ اَعْدَادِ زُمْرَتِهِ لَا مِنْ عَدِيدِ الْعِدَا فِي الْحَشْرِ وَالزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ الْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ اَرْشَدَنِي اِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ اُولَئِكَ الْخَدَمِ

المزاوجة

اِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَالْتَجَأْتُ لَهُ بِالْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ الْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَعَنْتُ بِهِ اِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ ... جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهْوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى السَّيْلِ فِي التَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ ... شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَالْحَيَا الْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي الْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا ... وَلَا يَشِينُ يَمِينٍ رَوْنَقَ النِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفَيْ ... قَضِيَّتِي فِي الْقَضَا بِالْمَجْدِ وَالْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا ... عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

الموارية

وَارَدَ الْفِكْرُ فِي مَدْحِ الْأَزِمَّهُ ... لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ ... يَا حُسْنَ مُلْتَحَمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحَمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا ... قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ الْخَدَمِ

المصفر

تُقَيِّسُنِي مِنْ ذُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَفَرَتْ ... وَلَّى عُزَيْمِي مُهَيْزِيمًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَازْرَقَّ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ ... سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِاضْطِرَابِ جَنَانٍ وَاضْطِرَامِ حَشًا ... نَازَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَٱلْقَلْبُ حَرَّقَهُ ٱلتَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ وَٱلْجَفْنُ قَرَّحَهُ ٱلتَّـدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي فَٱسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى ٱلْكَلِمِ

الادماج

أَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي وَعَسْجَدُ ٱلْخَدِّ مِنْ ذَا ٱلدَّمْعِ كَٱلْعَنَمِ

الحذف

أَرُومُ مِنْهُ ٱنْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ ٱلْحَشْرِ وَٱلتِّقَمِ

التاريخ

بِهِ ٱلْأَثِيمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ مُذْ أَرَّخُوهُ لَنَا بِٱلْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءِ حُسْنُ مُبْتَدَإِي هَنِّنِي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَأَخْتِمُ خِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِطَلْعَتِكَ مُ ٱلْبَاهِي بِجِذْرِ ٱلسَّنَى يَا مُرْشِدَ ٱلْأُمَمِ

* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ اَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ . وَقَدْ اَجْمَعَ اَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى اَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ اِيرَادُ لَفْظَيْنِ تُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ . غَيْرَ اَنَّ ٱلْاَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا اِلَّا اِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً . وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ نَكْشِفَ عَنْ اَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ اِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِاَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ . فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلْاِسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ اِسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ اِلَّا اِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَاِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْاَصْلَ ٱلَّذِي

اَصَّلَهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي مَثَّلَهُ . وَاَمَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ ٱشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا ٱلظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مِنَ ٱلتَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : ٱلْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ ٱلشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَاَمَّا ٱلْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْاٰخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . اَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ ٱلضَّحِكِ وَٱلْبُكَاءِ وَٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا اٰتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ ٱلْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ ٱلْحَسَنِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَٱلثَّقِيلَ ٱلْمَرِيَّ بِٱلْخَفِيفِ ٱلْوَبِيِّ وَٱلصِّدْقَ بِٱلْكَذِبِ وَٱلسُّخْطَ بِٱلرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ ٱلْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ اَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا اَسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ اَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَاِنَّهُ نَقَلَ ٱلْاِسْمَيْنِ اِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ اَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَادُ اَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَاَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَاَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْاَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي اِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَاِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ اُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ اِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِاَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْاَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةَ اِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَاِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَاِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ اِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَاعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَاَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ) فَهِيَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) اَنْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَالضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ بِهِ وَٱلْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ٱبْنِ أُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ ٱلسُّوءِ إِحْسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلْمَ بِٱلْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا. إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلْعَدْلِ حَسُنَتْ مُقَابَلَتُهُ بِهَا وَبَيْنَ ٱلظُّلْمِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ وَٱلْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ ٱسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَإِنَّ ٱلْمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُجْرِمِ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ إِذْ رَأَيْنَاهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ. أَمَّا ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى مَعَ أَخِيهِ لَا مَعَ ٱلْأَجْنَبِيِّ . مِثَالُهُ أَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ ٱلْأَوْصَافِ وَتَقْرُنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَإِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعْتِدَالٌ وَٱنْتِصَابُ قَدٍّ وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ ٱلْبُرْدِ

كَأَنَّمَا ٱلْهُدَّابُ فِي ٱلْفِرِنْدِ مُحَدْوِدِبُ ٱلظَّهْرِ كَرِيمُ ٱلْجَدِّ

فَانَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِاَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ . وَاَمَّا (ٱلْمُوَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَانَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْاَلْفَاظِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْاَوْعَارُ

وَٱلْاَحْسَنُ اَنْ : يُقَالُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ اَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْاَوْعَارُ . لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا اَيْ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ اَوِ ٱلْاَفْرَادِ. وَاِذَا اَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ اِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ اِلَى فَرْعَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ . (وَٱلْاٰخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلْاَوَّلُ) كَقَوْلِهِ : نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ . وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَاِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ اِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَانَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ. وَاِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ اِذَا كَانَتْ اِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْاُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : قُلْ اِنْ ضَلَلْتُ فَاِنَّمَا اَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَاِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي اِلَيَّ رَبِّي . فَاِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ : وَاِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَاِنَّمَا اَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ غُرَّةٌ شَادِخَةٌ فِي وَجْهِ ٱلْكَلَامِ وَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلْمُحْدَثِينَ مِنْهُمْ. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجَعَلُوهُ اَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً وَاخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَادْخَلُوا بَعْضَ تِلْكَ ٱلْاَبْوَابِ فِي بَعْضٍ. وَاِنَّمَا سُمِّيَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلْفَاظِهِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَاعْلَمْ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلْبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ اخْتَلَفَتْ اَقْوَالُهُمْ فِيهَا. فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : هُوَ بَيَانُ ٱلْمَعَانِي بِاَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَجْمَعُهَا اَصْلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ. وَقَالَ قُدَامَةُ : هُوَ اشْتِرَاكُ ٱلْمَعَانِي فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْاِشْتِقَاقِ. وَقَالَ اَبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : هُوَ اَنْ تَجِيءَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُخْتَهَا. وَقَالَ اَبْنُ ٱلْاَثِيرِ ٱلْجَزَرِيُّ : ٱلْجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ وَاحِدًا وَٱلْمَعْنَى مُخْتَلِفًا. وَقَالَ بَدْرُ ٱلدِّينِ اَبْنُ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي ضَوْءِ ٱلْمِصْبَاحِ : هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ. فَهٰذَا جُمْلَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ تَعْلِيقِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ.

(قُلْتُ) اَمَا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسْلَمُ مِمَّا بَعْدَهُ لٰكِنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ

لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وَجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَاَمَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَاِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ قَوْلَهُ : (فِي ٱلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي اِلَى ٱلدَّوْرِ لِاَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَاَدَّى ذٰلِكَ اِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِاَنْ يُقَالَ : اِنَّهُ مَا اَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ اَيْ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ اِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ اِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْاَثِيرِ فَهُوَ اَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ اَنْوَاعِهِ . وَاَمَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَاِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ اِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِاحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ : بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا اَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ اَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي اخْتَارُهُ اَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ اَنْ اَقُولَ : هُوَ ٱلْاِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ اَوْ زِيَادَةٍ فِي اَحَدِهِمَا اَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا اَوِ ٱلْحَرَكَاتِ اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمَمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ ٱلْمَمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَاَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَةٌ . اِنْ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَهْ . وَقَوْلِي : (اَوْ بَعْضِهَا) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَعَّمَ كَقَوْلِكَ : ٱلْاَمْوَاهُ وَٱلْاَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي : (اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (اَوْ زِيَادَةٍ) فِي اَحَدِهِمَا اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءِ مِنَ ٱلْاَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : اَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (اَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : اَغْتَنِمْ هُبَّاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : اَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْاَسَدِ . اِذَا اَرَدْتَ اَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيْثِ) ثُمَّ عَدَلْتَ إِلَى مَا يُرَادِفُهُ وَهُوَ ٱلْأَسَدُ . وَقَوْلِي : (نَظْمًا) إِعْلَامٌ بِأَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْجِنَاسِ إِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسْمَ تَجِدْهُ مَا أَخَلَّ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ : إِنَّ ٱلْجِنَاسَ يَحْسُنُ إِذَا قَلَّ وَأَتَى فِي ٱلْكَلَامِ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا ٱسْتِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ إِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ بِكَثْرَةِ ٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي أُفُقِ ٱلْأَلْفَاظِ . وَإِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلْأَطْلَالِ ٱلْبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

إِعْلَمْ أَنَّ أَنْوَاعَ ٱلْجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقْتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ أَخَصِّهَا وَأَوَّلُهَا ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُرَكَّبُ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلْأُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلْأَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفْظًا وَخَطًّا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَّهْرُ بِنَابِهْ لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفْظًا لَا خَطًّا وَيُسَمَّى ٱلْمَفْرُوقَ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغْتَ فِي تَهْذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُوُّهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَزْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزَّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِي ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلُمْهُ عَنْ تَذَكُّرِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقِ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ بِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ مَحَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يُمِدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ الرَّدَى تَحْتَ الصَّفَا وَالصَّفَائِحِ

وَارَقُّ مَا سَمِعْتُ فِي هٰذَا الْبَابِ قَوْلُ الْقَائِلِ :

اِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشِّفَاءُ م مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحْ

وَاَمَّا (اللَّاحِقُ) فَهُوَ مَا اُبْدِلَ فِي اَحَدِ رُكْنَيْهِ حَرْفٌ مِنْ غَيْرِ مَخْرَجِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَتَنَاوَلْتُهُ بِالْيَمِينِ وَوَضَعْتُهُ مَكَانَ الْعِقْدِ الثَّمِينِ . وَكَقَوْلِ الْآخَرِ : اَمَا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَاَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجِنَاسِ اللَّاحِقِ وَالْجِنَاسِ الْمُضَارِعِ اَنَّ حُرُوفَ اللَّاحِقِ لَيْسَتْ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ كَالنُّونِ وَالْقَافِ فِي : (تَقْهَرْ وَتَنْهَرْ) . وَاَمَّا حُرُوفُ الْمُضَارِعِ فَاِنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ فِي الْمَخْرَجِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : اِنَّ الْخَيْلَ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : الْبَرَايَا اَهْدَافُ الْبَلَايَا . فَاِنَّ الرَّاءَ وَاللَّامَ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَمِنْ اَنْوَاعِ التَّجْنِيسِ (التَّامُّ) . وَهُوَ مَا تَمَاثَلَ رُكْنَاهُ وَاتَّفَقَا لَفْظًا وَاخْتَلَفَا مَعْنًى مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ فِي تَصْحِيحِ تَرْكِيبِهِمَا وَاخْتِلَافِ حَرَكَتِهِمَا سَوَاءٌ كَانَا مِنِ اسْمَيْنِ اَوْ مِنْ فِعْلَيْنِ اَوْ مِنِ اسْمٍ وَفِعْلٍ فَاِنَّهُمْ قَالُوا : اِذَا انْتَظَمَ رُكْنَاهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ كَاسْمَيْنِ اَوْ فِعْلَيْنِ سُمِّيَ مُمَاثِلًا وَاِنِ انْتَظَمَا مِنْ نَوْعَيْنِ كَاسْمٍ وَفِعْلٍ سُمِّيَ مُسْتَوْفًى . وَجُلُّ الْقَصْدِ تَمَاثُلُ الرُّكْنَيْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْحَرَكَةِ وَاخْتِلَافُهُمَا فِي الْمَعْنَى . فَمِنْهُ قَوْلُ اَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ : صَوْلَةُ الْبَاطِلِ سَاعَةٌ وَصَوْلَةُ الْحَقِّ اِلَى السَّاعَةِ . وَمِنَ الشِّعْرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي رِثَاءِ صَغِيرٍ اَسْمُهُ يَحْيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ الْجِنَاسُ (الْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ الْأَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُذَيَّلِ . فَإِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَأَمَّا الْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي أَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَالطَّرَفِ وَيُسَمَّى أَيْضًا النَّاقِصَ وَالْمُرْدَفَ وَالْمُزْدَوِجَ وَالْمُكَرَّرَ وَالْمَرْدُودَ وَالْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ اخْتِلَافٌ . وَالزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي أَوَّلِ الرُّكْنِ الثَّانِي وَتَارَةً فِي أَوَّلِ الرُّكْنِ الْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ الصَّاعَ انْصَاعَ . وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفُ ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ الْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ لَشُكْرِي عَلَى تِلْكَ اللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (اللَّفْظِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا يُخَالِفُ الْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا الَّذِي يُكْتَبُ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ابْنِ الْعَفِيفِ :

أَحْسَنُ خَلْقِ اللهِ وَجْهًا وَفَمًا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِالْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (الْجِنَاسُ الْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ الْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَكْسُ الْأَلْفَاظِ وَالثَّانِي عَكْسُ الْحُرُوفِ . فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ السَّادَاتِ . سَادَاتُ الْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ). وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءٍ كَلَامِهِ ٱلْأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلْأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي. وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

اَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقُلُّ ٱلْوَلَا اُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاَلْتُ فِيهِ لَمَّا رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلْأَرَّجَانِيِّ:

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وَهَلْ كُلُّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلِٱشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِٱقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ. وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ: وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللهِ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اِنْ تَرَ الدُّنْيَا اَغَارَتْ وَنُجُومَ السَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ الدَّهْرِ شَتَّى كُلَّمَا جَارَتْ لَجَارَتْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (الْمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ رُكْنَيِ الْجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعْنَى الْآخَرِ فِي غَيْرِ اَلْفَاظِهِ وَهٰذَا النَّوْعُ اَسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ الْمُتَاَخِّرِينَ وَاَسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِاَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي الْكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا النَّوْعِ فِي الْكَلَامِ اَنَّ الشَّاعِرَ يَقْصِدُ الْمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ الْوَزْنُ عَلَى اِثْبَاتِ اَحَدِ رُكْنَيِ الْجِنَاسِ فَيَعْدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا النَّوْعِ فِي الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ اِلَى الْاِتْيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ اَرْبَابِ الْبَدِيعِ فِي هٰذَا النَّوْعِ قَوْلُ الشَّاعِرِ يَمْدَحُ الْمُهَلَّبَ بْنَ اَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ الْفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى اَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِاَبِي اُمِّ الرِّئَالِ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ الْوَزْنُ فَقَالَ : بِاَبِي اُمِّ الرِّئَالِ لِاَنَّ الرِّئَالَ فِرَاخُ النَّعَامَةِ. وَاعْلَمْ اَنَّ الشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ الْاَبْيَاتِ مَا لَحَوْا هٰذِهِ الْمَقَاصِدَ الْبَعِيدَةَ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ التَّكَلُّفِ وَالتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمَثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلْعُقُولِ مُشْتَقَّةَ مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِٱنْتِصَابُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَإِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : إِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : إِنَّ ٱلْأَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ أَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : أَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْغَابِرُ

هٰذَا وَإِنَّ ٱلْأَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ . وَتُقَيِّدُ أَوَابِدَهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتُطِيرُ نَوَاهِضَهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْأَمْثَالَ إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا أَشَدُّ ٱخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ اَمْثَالِهِمْ (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْاَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْاَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : اَنَّهُ بَلَغَنَا اَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ اَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ اَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : اِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ اَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . اِذَا اُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْاَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ اَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ اَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدَّمَاتٌ وَاَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْاَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ اِيرَادُ هٰذِهِ ٱلْلَّفْظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْاَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِاَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ اَنْ يَظْلِمَ اَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : اِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْاَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْاِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَدْوِيحًا صَارَتْ مِنْ أَوْجَزِ الْكَلَامِ وَأَكْثَرِهِ اخْتِصَارًا . وَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ فِي حَدِّ الْمَثَلِ : إِنَّهُ الْقَوْلُ الْوَجِيزُ الْمُرْسَلُ لِيُعْمَلَ عَلَيْهِ وَحَيْثُ هِيَ بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ فَلَا يَنْبَغِي الْإِخْلَالُ بِمَعْرِفَتِهَا

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطهِ

(عن الماوَردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ الْحَكِيمِ أَنْ يَجْتَنِبَ أَمْثَالَ الْعَامَّةِ الْغَوْغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِأَمْثَالِ الْعُلَمَاءِ الْأُدَبَاءِ فَإِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ أَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا وَتَشْبِيهًا مُسْتَقْبَحًا . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : إِحْدَاهُمَا أَنَّ الْأَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ الْهِمَمِ وَخَطَرَاتِ النُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي الْهِمَّةِ السَّاقِطَةِ إِلَّا مَثَلٌ مَرْذُولٌ وَتَشْبِيهٌ مَعْلُولٌ. وَالثَّانِيَةُ أَنَّ الْأَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَمَثَّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ تَكُونُ أَمْثَالُهُمْ. فَلِهَاتَيْنِ الْعِلَّتَيْنِ وَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَمْثَالِ الْخَاصَّةِ وَأَمْثَالِ الْعَامَّةِ وَرُبَّمَا أَلِفَ الْمُتَخَصِّصُ مَثَلًا عَامِيًّا أَوْ تَشْبِيهًا رَكِيكًا لِكَثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَرَاذِلِ فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا كَالَّذِي حُكِيَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ : إِنَّ الرَّشِيدَ سَأَلَهُ يَوْمًا عَنْ أَنْسَابِ بَعْضِ الْعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى الْخَبِيرِ

سَقَطتَ يَا اَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَهُ اَلْفَضْلُ بْنُ اَلرَّبِيعِ : اَسْقَطَ اَللهُ جَنْبَيْكَ اَتُخَاطِبُ اَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ هٰذَا اَلْخِطَابِ . فَكَانَ اَلْفَضْلُ اَبْنُ اَلرَّبِيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلْمِهِ اَعْلَمَ بِمَا يُسْتَعْمَلُ مِنَ اَلْكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ اَلْخُلَفَاءِ مِنَ اَلْاَصْمَعِيِّ اَلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصْرِهِ وَقَرِيعُ دَهْرِهِ . وَلِلْاَمْثَالِ مِنَ اَلْكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي اَلْاَسْمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي اَلْقُلُوبِ لَا يَكَادُ اَلْكَلَامُ اَلْمُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ اَلْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَالشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَالنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَاَلْقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَاَلْعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ اَلتَّشْبِيهِ . وَاَلثَّانِي اَنْ يَكُونَ اَلْعِلْمُ بِهَا سَابِقًا وَاَلْكُلُّ عَلَيْهَا مُوَافِقًا . وَاَلثَّالِثُ اَنْ يُسْرِعَ وُصُولُهَا لِلْفَهْمِ وَيَعْجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي اَلْوَهْمِ مِنْ غَيْرِ اَرْتِيَاءٍ فِي اَسْتِخْرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي اَسْتِنْبَاطِهَا . وَاَلرَّابِعُ اَنْ تُنَاسِبَ حَالَ اَلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبْلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحْسَنَ مَوْقِعًا . فَاِذَا اَجْتَمَعَتْ فِي اَلْاَمْثَالِ اَلْمَضْرُوبَةِ هٰذِهِ اَلشُّرُوطُ اَلْاَرْبَعَةُ كَانَتْ زِينَةً لِلْكَلَامِ وَجَلَاءً لِلْمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلْاَفْهَامِ

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ اَلْاَمْثَالِ اَنْ يُدِيمَ اَلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا اِنَّمَا هِيَ اَلْاِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ اَوْ مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ اَلْغَرَضِ اَلْمَقْصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ اَلصَّيَّادِ اَلَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ اَلْخُلْجَانِ يَصِيدُ فِيهِ اَلسَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيقِ اَلْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَأْلَأُ حُسْنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ اَلْقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا ٱخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَٱلْقَى شَبَكَتَهُ فَاَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَاَى اَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ اِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَاَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي اَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى اِغْفَالِ اَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ وَٱلْاِغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى اَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْاَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْاَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي اَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ اَصَابَ اَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى اِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَاَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ اَحْسَنَ فَائِدَةً وَاَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يَعْلَمَ اَنَّهَا تَنْقَسِمُ اِلَى اَرْبَعَةِ اَغْرَاضٍ : اَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ اِلَى وَضْعِهَا عَلَى اَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ اَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ اِلَى قَرَاءَتِهَا فَتَسْتَمِيلُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِاَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ جِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي اِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ لِيَكُونَ اُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا اَشَدَّ لِلتُّرْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلُقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْاَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ اَبَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْاَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْاَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ اِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَاَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ اَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَاُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَاتَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ اِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلْاِسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلْاِسْتِمَاعِ هُوَ اَشْهَى اِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ اَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم ... ومدّت فيهِ السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ ... بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق البلغاء فيهِ ... وآلباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات ... على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير ... وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا ... وحسبكها لعالمها فضيلهْ

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ اَنْ لَا يُقْتَضَبَ اقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَاَنْ يُتَوَصَّلَ اِلَى اِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَاَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ اَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْفَاوَنَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : اِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ اَصْلٍ وَاحِدٍ اِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ اِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : اِنِّي مَا اَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : اِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ اَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي فَكَاَنَّ اَطْيَبَهَا غَثِيثُ
اِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَاِنَّهُ مِثْلُ ٱسْمِهِ اَبَدًا حَدِيثُ

وَاَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ اِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ اَهْلِ ٱلْاَدَبِ اَنَّ مِنَ ٱلْاَدَبِ عَدَمَ اِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَاَنَّ اَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَاَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ اَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْاَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغْلَغَلَةِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَشْوِيَّةِ ٱلَّتِي اُفْتُنَّ بِاقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى اَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَاِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ اَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَاَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ اَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعه

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ. وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْاَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْاَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْاَنْبِيَاءِ وَٱلْاَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْاَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْاَحْوَالِ

ٱلْمَاضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمُرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ ٱلْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَشَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَأَصْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلْعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْأَحْمَقُ وَٱلْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَمَّا بَعْدُ فَاِنَّ فَنَّ اَلتَّأْرِيخِ مِنَ اَلْفُنُونِ اَلَّتِي تَتَدَاوَلُهَا اَلْأُمَمُ وَاَلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ اِلَيْهَا اَلرِّكَائِبُ وَالرِّحَالُ وَتَسْمُو اِلَى مَعْرِفَتِهَا اَلسُّوقَةُ وَاَلْأَغْفَالُ . وَنَتَنَافَسُ فِيهَا اَلْمُلُوكُ وَاَلْأَقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهَا اَلْعُلَمَاءُ وَاَلْجُهَّالُ . اِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اَخْبَارٍ عَنِ اَلْأَيَّامِ وَاَلدُّوَلِ . وَاَلسَّوَابِقِ مِنَ اَلْقُرُونِ اَلْأُوَلِ . تَسْمُو فِيهَا اَلْأَقْوَالُ وَتُضْرَبُ فِيهَا اَلْأَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا اَلْأَنْدِيَةُ اِذَا غَصَّهَا اَلْاِحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ اَلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا اَلْأَحْوَالُ . وَاَتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا اَلنِّطَاقُ وَاَلْمَجَالُ . وَعَمَرُوا اَلْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ اَلِارْتِحَالُ . وَحَانَ مِنْهُمُ اَلزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ اَلْوَقَائِعِ وَاَسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذٰلِكَ اَصِيلٌ فِي اَلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِاَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَاِنَّ فُحُولَ اَلْمُؤَرِّخِينَ فِي اَلْاِسْلَامِ قَدِ اَسْتَوْعَبُوا اَخْبَارَ اَلْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ اَلدَّفَاتِرِ وَاَوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا اَلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ اَلْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَاَبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ اَلرِّوَايَاتِ اَلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا . وَاَقْتَفَى تِلْكَ اَلْآثَارَ اَلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاَتَّبَعُوهَا . وَاَدَّوْهَا اِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا. وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْإِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ. هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ. وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحٰقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ. وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحُفَّظَةِ ٱلثِّقَاتِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ. وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوْ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ. وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلْآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلَهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسُجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. أَتْبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُفْضُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَاتِهَا فَتَسْتَخِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسْقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبَدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

تَطَلَّعًا بَعْدُ إِلَى ٱفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِئِ ٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَرَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا . بَاحِثًا عَنِ ٱلْمَقْنَعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ فِي تَنَاسُبِهَا . ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِٱكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِٱقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْأَثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا ٱذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَأَخَلُّوا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفَلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّأْرِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِئِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ الْخَبَرَ الْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا اسْتَكْبَرَ الْقُدَمَاءُ عِلْمَ التَّأْرِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ الطَّبَرِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا السِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَالْخَوْضَ فِيهِ وَالتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ وَاللُّبَابُ بِالْقِشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ

وَاعْلَمْ أَنَّ فَنَّ التَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ جَمُّ الْفَائِدَةِ شَرِيفُ الْعَائِدَةِ إِذْ هُوَ يَقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَالْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَالْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الْاِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفِيضَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى الْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزِلَّاتِ وَالْمَغَالِطِ . لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا اعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ النَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَالْأَحْوَالُ فِي الْاِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ الْغَائِبُ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ الْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ الصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ النَّقْلِ الْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ . فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنْطِقَ فِيهِ إِلَّا بِالْعَدْلِ . وَأَنْ تَعْزِلَ سُلْطَانَ الْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ حُكْمِ الْمَنْشَإِ وَالْمَرْبَى وَتَفْرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَأَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا أَنْ تُعَبِّرَ عَنِ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ الْأَفْهَامِ لِتَنْتَفِعَ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ عَادِلًا عَنِ الْعِبَارَاتِ الْمُسْتَصْعَبَةِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا إِظْهَارُ الْفَصَاحَةِ وَإِثْبَاتُ الْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَأَيْتُ مُصَنِّفِي الْكُتُبِ قَدِ اعْتَرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ إِظْهَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ أَغْرَاضُهُمْ وَاعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ الْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَإِنَّ كُتُبَ التَّوَارِيخِ إِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ إِلَيْهَا رُئِيَتْ أَنْفَعَ مِنَ الْحَمَاسَةِ الَّتِي لَهِجَ النَّاسُ بِهَا وَأَخَذُوا أَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَإِنَّ الْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالضِّيَاقَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي الْبَابِ الْمُسَمَّى بَابَ الْأَدَبِ وَالتَّأَنُّسِ بِالْمَذَاهِبِ الشِّعْرِيَّةِ . وَالتَّارِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَآدَابُ الرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي الْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي الْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَإِنَّهُ يُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً وَالذِّهْنَ حِدَّةً وَالْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ الذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ الْجَيِّدِ وَهُوَ أَيْضًا أَنْفَعُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي النَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحْفُّظِهَا رَاغِبُونَ إِذِ الْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى التَّمَرُّنِ عَلَى الْإِنْشَاءِ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصْغِرُ الْهِمَّةَ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّؤَالِ وَالِاسْتِجْدَاءِ وَالتَّحَيُّلِ الْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ الزَّرِّ الطَّفِيفِ فَإِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ النَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ إِلَى نَهْجِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يَتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَأَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ رُبَّمَا ٱضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْأَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا أَنْسَتْهُ ٱلْأَشْغَالُ . . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(ٱلْأَصْلُ ٱلْأَوَّلُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ إِلَى مَعْنَيَيْنِ : (ٱلْمَعْنَى ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ إِمَّا بِٱلِٱفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِأَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ إِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . أَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلْٱبْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجْزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَتِهِ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلِٱعْتِذَارِ وَٱلِٱذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِسَاطًا لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيَرْجِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلْاِمْلَالِ وَٱلْاِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلِّ لَفْظٍ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

ٱلْكَاتِبُ قَدْ اَخَلَّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ اِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيسٍ اَوْ نَظِيرٍ اَوْ مَرْؤُوسٍ اَنْ يَكُونَ لَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى ٱتِّسَاقٍ اِلَى آخِرِهَا وَاَطْرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ . نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ ٱلْاِخْوَانِ وَٱلْمُدَاعَبَاتِ ٱلْجَارِيَةِ بَيْنَ ٱلْخُلَّانِ . . . (ٱلْاَصْلُ ٱلْخَامِسُ) ٱلْاَدْعِيَةُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَةُ ٱلسَّلَفِ وَتَبِعَهُمُ ٱلْخَلَفُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ اَوْجُهٍ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا . وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ اَدْعِيَةٍ مِنْهَا : ٱلدُّعَاءُ بِاَطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلدُّعَاءُ بِاَطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . فَٱلدُّعَاءُ بِاَطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ اَرْفَعُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ بِاَطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِاَنَّهُ ضِدُّ ٱلْفَنَاءِ وَٱلْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِٱلْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِٱلْعُمْرِ . . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْجَلِيلَةِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِٱلدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ ٱلْمُلُوكِ بِدَوَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُلُودِ ٱلْمُلْكِ . وَاِلَى ٱلْاُمَرَاءِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلنَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلنِّعْمَةِ . وَاِلَى ٱلْوُزَرَاءِ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْاَقْلَامِ بِسُبُوغِ ٱلنَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ ٱلسَّعَادَةِ وَدَوَامِ ٱلْمَجْدِ . وَاِلَى ٱلْقُضَاةِ وَٱلْحُكَّامِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلْاَحْكَامِ . وَاِلَى ٱلتُّجَّارِ بِٱلدُّعَاءِ بِمَزِيدِ ٱلْاِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَتَكُونُ ٱلْاَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ ٱلْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي ٱلْهَنَاءِ وَٱلشُّكْرِ أَوِ ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى كُلاًّ بِمَا يُنَاسِبُهُ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ... (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّادِسُ) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ ٱلْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . . كَٱلْمَقَامِ وَٱلْمَقَرِّ وَٱلْجَنَابِ وَٱلنَّادِي وَٱلْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلنُّعُوتَ . (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّابِعُ) أَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصِدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى أَمْرَيْنِ : (ٱلْأَمْرُ ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ ٱلنِّعْمَةَ حَمِدَ ٱللهَ وَإِنْ ذَكَرَ ٱلْبَلْوَى شَفَعَهَا بِٱلِٱسْتِعَانَةِ بِٱللهِ وَٱلرُّجُوعِ إِلَيْهِ فِيهَا . وَيَتَّحِقُ بِذٰلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ ٱلرَّئِيسَ فِي أَثْنَاءِ ٱلْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلسُّلْطَانِ : خَلَّدَ ٱللهُ مُلْكَهُ وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . (ٱلْأَمْرُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَتَخَطَّى ٱلتَّصْرِيحَ إِلَى ٱلتَّلْوِيحِ وَٱلْإِشَارَةِ إِذَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْحَالُ إِلَى ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَإِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ مِمَّا فِي ذِكْرِهِ ٱطِّرَاحُ مَهَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱسْمَاعُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ إِخْلَالُ ٱلْأَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُنْشِيءُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ وَٱلتَّلَطُّفِ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنًى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّامِنُ) أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِينَ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ مِنَ ٱللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ أَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱللَّفْظِ وَمَا

يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ (اِسْتِشْهَادٌ مِنْ كِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ).. (ٱلْاَصْلُ ٱلتَّاسِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ رُتْبَةَ ٱلْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ فِي ٱلْخِطَابِ فَيُعْتَبَرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَلِيقُ بِهِ . وَيُخَاطِبَ ٱلْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ . فَاَمَّا ٱلْمَكْتُوبُ عَنْهُ فَيَخْتَلِفُ ٱلْحَالُ فِيهِ بِٱخْتِلَافِ مَنْصِبِهِ وَرُتْبَتِهِ فَيُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلصَّادِرَةِ عَنْ اَبْوَابِ ٱلْخِلَافَةِ بِاَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِثْلُ اَنْ يُقَالَ : فَجَرَى اَمْرُ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي كَذَا عَلَى كَذَا . وَاَوْعَزَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ اِلَى فُلَانٍ بِكَذَا وَٱقْتَضَى رَأْيُ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ كَذَا وَهَلُمَّ جَرًّا. وَكَذٰلِكَ اَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلنُّظَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْوُكَلَاءِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ مَنْ يَكْتُبُ اِلَيْهِ.. اَلَا تَرَى اَنَّكَ لَوْ خَاطَبْتَ سُلْطَانًا اَوْ وَزِيرًا بِٱلتَّعْزِيَةِ عَنِ ٱلْمُصِيبَةِ مِنْ مَصَائِبِ ٱلدُّنْيَا لَمَا جَازَ اَنْ تَبْنِيَ ٱلْكَلَامَ عَلَى وَعْظِهِ وَتَبْصِيرِهِ وَاِرْشَادِهِ وَحَضِّهِ عَلَى ٱلْاَخْذِ بِحَظٍّ مِنَ ٱلصَّبْرِ .. وَاِنَّمَا ٱلصَّوَابُ اَنْ تَبْنِيَ ٱلْخِطَابَ عَلَى اَنَّهُ اَعْلَى شَأْنًا وَاَرْفَعُ مَكَانًا مِنْ اَنْ يُعَزَّى بِخِلَافِ ٱلْمُتَاَخِّرِ فِي ٱلرُّتْبَةِ فَاِنَّهُ اِنَّمَا يُعَزَّى تَنْبِيهًا وَتَذْكِيرًا وَتَصْبِيرًا وَتَعْرِيفًا لِلْوَاجِبِ فِي تَلَقِّي ٱلسَّرَّاءِ بِٱلشُّكْرِ وَٱلضَّرَّاءِ بِٱلصَّبْرِ .. (ٱلْاَصْلُ ٱلْعَاشِرُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَوَاقِعَ ٱلْآيَاتِ وَٱلسَّجْعَ فِي ٱلْكُتُبِ وَذِكْرَ اَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ ...

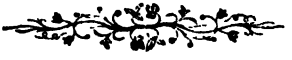

الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوَهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْاُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزِّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَاَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلْأَوَّلِ وَقَعَ لِلْآخِرِ . وَهٰذَا أَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ أَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ أَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفْظًا مِنْ عِنْدِهِ أَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : إِنَّ أَبَا عُذْرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ أَلْفَظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى أَنَّ ٱبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبْقَ إِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَإِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ إِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ إِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا إِلَيْهِمَا . وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا إِذَا أَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَأَخَذَهُ فَأَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا أَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَإِنَّهُ أَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْإِظْلَامُ إِظْلَامُ

وَأَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَأَفْضَلَتْ
عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتْبَعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ . أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ فِيمَنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعَتْ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْجَبَلِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولٰئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رَزَنْتُهُمْ فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْأَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى ... أَفَدتُّ وَأَعْدَانِي فَأَتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَأَحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَأَحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهُبُّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ ... وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ إِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لَحْيَيْهِ عِذَارَا

لِأَنَّ ٱلْإِغْمَادَ فِيهِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ أَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ أَطُولُ بِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْأَنَابِيبُ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱجْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ . وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ السَّاعِدَيْنِ كَاَنَّمَا يُلَاثُ نِجَادًا سَيْفُهُ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفْظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَاَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي اَبْنَيْ عُبَيْدِ اللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ اللَّحَاظِ فِيهِمَا لَوْ اُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

اِنَّ الْهِلَالَ اِذَا رَاَيْتَ نُمُوَّهُ اَيْقَنْتَ اَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ الْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ اَنَّ الْمَنَايَا اَنْسَاتُهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ الْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَاَخَذَ قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَاَمَرَتْنِي النَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طُفْتُ فِي الْآفَاقِ اِلَّا وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْاَمَانِي وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ الْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ الْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِالَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ

فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحِ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ قُلْتُهُ

وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ الَّذِي بَعْدِي

وَكُنْتَ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي الَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى الَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ الْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ الْمَهْدُونَ فِي الْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا الدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبَسَتْهُمُ الْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

لَبِسُوا الْقُلُوبَ عَلَى الدُّرُوعِ مَظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ النَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَالْمَشْرَبُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ اللهِ وَأَنْتَ مَوْزُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ احْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو الْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤْجَرُ أَمْ تَسْلُوسُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ. وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِلْحَزَمَاءِ ٱلرِّجَالِ. وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لَرَبَّاتُ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ. لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَٱسْتَعْمَلْتُكَ. فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ:

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ:

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ:

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ: ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي. وَمِنْ حُسْنِ ٱلْإِتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ: إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً. أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ: يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ. فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا ٱثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَكَذَّبَتْنِي آثَارُهُ وَغَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالُ ٱلسَّدَادِ فِي عَمَا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلْإِتِّبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَٱسْتَبْطِئْ دَرَكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي رُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ ٱبِي رُؤَادٍ : مَا ٱحْسَنَ هٰذَا مِنْ ٱيْنَ ٱخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ ٱبِي نُوَاسٍ وَلَيْسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . ٱنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قَلِيبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ ٱبْيَاتًا لِلْمُتَنَبِّي وَهِيَ :

أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ وَرَاجَعَهُ حِلْمٌ وَأَعْقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

أَلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ وَأَعَارَهُ ٱلْإِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَةٍ غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيْسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ ٱمْسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ إِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَأَعْقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا أَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعْرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلْمَنْظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ أَسْهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنْظُومًا أَوْ نُظِمَتْ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَحْلُّ أَوْ تَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدْتَ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدْتَ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُكَهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يَحْلُّ بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يَحْلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ فَمِثَالُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صَدْرِ كَلَامِ قُلَيْبٍ ٱلْمُعْتَزِلِيِّ . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي فَمِثَالُهُ مَا ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

نَطْلُبُ ٱلْأَكْثَرَ فِي ٱلدُّنْيَا وَقَدْ تُبْلَغُ ٱلْحَاجَةُ فِيهَا بِٱلْأَقَلْ

ثُمَّ قَالَ : فَإِذَا نَثَرْتَ ذٰلِكَ وَلَمْ تَزِدْ فِي أَلْفَاظِهِ شَيْئًا قُلْتَ : نَطْلُبُ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْأَكْثَرَ وَنَبْلُغُ مِنْهَا ٱلْحَاجَةَ بِٱلْأَقَلِّ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ فَهُوَ أَنْ تُوضَعَ أَلْفَاظُ ٱلْبَيْتِ فِي مَوَاضِعَ لَا يَحْسُنُ وَضْعُهَا فِي غَيْرِهَا فَيُحْتَلُّ إِذَا نُثِرَ بِتَأْخِيرِ لَفْظٍ وَتَقْدِيمِ آخَرَ فَيَحْتَاجُ نَثْرُهُ إِلَى ٱلنُّقْصَانِ مِنْهُ وَٱلزِّيَادَةِ فِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ أَيْضًا :

يُسَرُّ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا

وَلَمْ أَرْتَضِ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ أَرْتِضَائِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا

فَإِذَا نُثِرَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ قِيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بِعُمْرَانِ ٱلدُّنْيَا وَمِنْ خَرَابِهَا عُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ وَلَمْ أَرْتَضِ أَوَانَ مَجِيئِهَا ٱلدُّنْيَا فَكَيْفَ أَوَانَ ذَهَابِهَا أَرْتِضَائِيهَا . فَهٰذَا نَثْرٌ فَاسِدٌ فَإِذَا غَيَّرْتَ بَعْضَ أَلْفَاظِهِ حَسُنَ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : يُسَرُّ ٱلْمُضَلَّلُ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا يُسْتَأْنَفُ عُمْرَانُهَا مِنْ خَرَابِهَا . وَمَا ٱرْتَضَيْتُ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ أَرْتَضِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا . وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ مِنَ ٱلنَّظْمِ مَا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ أَصْلًا بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى مِنْهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلزِّيَادَةُ وَٱلنُّقْصَانُ . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

فَٱلْمِصْرَاعُ ٱلْأَوَّلُ يُمْكِنُ أَنْ تُؤَخَّرَ أَلْفَاظُهُ وَتُقَدَّمَ فَيَصِيرُ نَثْرًا

مُسْتَقِيمًا وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : فُؤَادُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ . وَلَا يُمْكِنُ فِي ٱلْمِصْرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ اَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ لِاَنَّ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِي اِنَّمَا هُوَ تَذْيِيلٌ لِلْمِصْرَاعِ ٱلْاَوَّلِ فَاِذَا اَرَدتَّ اَنْ تَحُلَّهُ حَلًّا مُقْتَصِرًا بِغَيْرِ لَفْظِهِ قُلْتَ : ٱلْاِنْسَانُ شَطْرَانِ لِسَانٌ وَجَنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ بِتَقْدِيمِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَأْخِيرِ اُخْرَى اَيْضًا قَوْلُ اَبِي نُوَاس :

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا اَمَا وَٱللّٰهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْقَى

فَتَحْتَاجُ فِي نَثْرِهِ اِلَى تَغْيِيرِهِ وَاِبْدَالِ اَلْفَاظِهِ فَتَقُولُ : اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ مَانُوا وَمَضَوْا وَظَعَنُوا فَنَاوْا فَوَٱللّٰهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا اِلَّا لِتَرِيمَ . وَلَا مَاتُوا لِتَحْيَا وَلَا فَنُوا لِتَبْقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ طُولٌ وَلَيْسَ بِصَائِرٍ عَلَى مَا خَبَرْتُكَ فَاِنْ اَرَدتَّ اَخْتِصَارَهُ قُلْتَ : اَمَا وَٱللّٰهِ اِنَّ ٱلْمَوْتَ لَمْ يُصِبْكَ فِي اَبِيكَ اِلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ اَنْ تَكْسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِكَ . وَهٰذَا اَرْفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنْهُ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ وَقَدْ رَاَى اِجْتِهَادَهُ فِي ٱلْعِبَادَةِ : قَتَلْتَ نَفْسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا اَطْلُبُ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

سَاَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ فَقَالَ نَثْرًا : اِنَّ اَمْرًا لَمْ يَعُدَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ اِلَّا اَبًا مَيِّتًا لَمُعْرِقٌ لَهُ فِي ٱلْمَوْتِ . فَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ اِلَّا هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ اَبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نَعُمْ بِهَا حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَزِلُّ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ . فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ . وَقِيلَ لِلْعُتَابِيِّ : بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ . فَقَالَ : بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جِنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ . وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَجِنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الِاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ :

لِفَضْلِ نِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ
فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ
وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ :

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَأْثِمُ ظَهْرَهَا وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَأَتْبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الْإِتْبَاعَ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا
فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا ٱلْطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى ٱنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا ٱخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى أَرْمَاحِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَابَعُ ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبَعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَاَنَّهَا مِنَ ٱلْجَيْشِ اِلَّا اَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُهُ : (اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى اَحْيَانِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَطْلُحُ ٱلنُّجُومَ وَجِدٌّ آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهْوَ حَضِيضُ

اَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجِدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا اَخَذَهُ مِنْ اَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ اِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ فَاِذَا لُقُوا فَكَاَنَّهُمْ اَغْمَارُ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

اَخَذَهُ اَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَاِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِاَنَّهُ اَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

رَاَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَاَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَاخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى اَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَاَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ ٱللهُ ٱلْاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلْاَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَنْضَرْتَ اَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا وَٱلْغُصْنُ سَاقًا وَٱلْقَرَارَةُ نِيقًا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وفِيمَا اَوْرَدْتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلْاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى ٱلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلْكُسْوَةِ. اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا ٱلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمَا اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى ٱلسِّنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ اَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ اَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبُعَيْثُ :

اَتَرْجُو كُلَيْبٌ اَنْ يَجِيَّ حَدِيثُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ اَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

اَتَرْجُو رَبِيعٌ اَنْ تَجِيَّ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ اَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْاَخْذُ اِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَاِنِ ٱدَّعَى ٱلْاٰخِرُ اَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْاَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَاِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا اِلَّا ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْاٰخِرِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَاِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا اَنَّ اَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَاَنْشَدَتِ ٱلصَّاحِبَ اِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ اَخِلَّتِهِ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ ما قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْاٰخَرُ مِنَ ٱلْاَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ اَنْ يَاْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ اَوْ يُعَرِّضَهُ اَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلَةٍ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا ... هُ وَجْهٌ يُشْبِهُ ٱلْبَدْرَا

وَاِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاس :

بَزَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ :

اَيُفَاخِرُكَ ٱبْنُ جَفْنَةَ وَٱللَّاتِ لَاَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ احْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ اَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ اَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرَتُكَ اَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَاُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ اَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

اِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللّٰهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ اِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَاِنْ طَالَتِ ٱلْاَيَّامُ وَاتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ

اِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَاِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ اَعْقَبَهَا ٱلْاَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا اِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بِهَا ٱلْاَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَاَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اِنَّ ٱللّٰهَ ذُو نِعَمٍ ... لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ ... شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْاَخْذِ فَاعْلَمْهُ . وَاَخَذَ ٱبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ اِمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فَيَالَامِي دَعْنِي أُغَالِي بِقِيمَتِي فَقِيمَةُ كُلِّ النَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَأَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَأَخْرَجَهُ بَعِيضًا مُتَكَلَّفًا . وَأَجْيَدُ قَوْلُ الْآخَرِ : (فَقِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ عِلْمُهُ) فَهَذَا وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَإِنَّ بَيْتَهُ أَحْسَنُ مَوْقِعًا مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ابْنِ طَبَاطِبَا . وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ الْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الْوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ الْكِتْمَانِ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَالضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مِرْهَفٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الْأَضْغَانِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعَ الْأَضْغَانِ) أَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ : مَوَاطِنَ الْكِتْمَانِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعِنُونَ الْأَعْدَاءَ مِنْ أَجْلِ أَضْغَانِهِمْ فَإِذَا وَقَعَ الطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ الضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ الْمُرَادِ . وَأَنْشَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ وَتَنْدَقُّ قِدْمًا فِي الصُّدُورِ صُدُورُهَا

مُسَلَّمَةٌ أَعْجَازُ خَيْلِيَ فِي الْوَغَى مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

أُنَاسٌ إِذَا مَا اسْتَحْكَمَ الرَّوْعُ كَسَّرُوا

صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ

فَأَحْسَنَا جَمِيعًا وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

يَلْقَى السُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمِغْفَرِ

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ اصْطَبِرْ لِشَبَا الْقَنَا فَهَدَمْتُ رُكْنَ الْمَجْدِ إِنْ لَمْ يُغْفَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ ٱتْقِنَ نَظْمُهُ وَأَحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نُثِرَ ٱلشِّعْرُ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

وَاَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَاَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

اَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَاَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ ٱلنَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ اَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَاَنَّهُ يَنْظُرُ اِلَى ٱلْكَوَاكِبِ مِنْ عَلِ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَاَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰذَا ٱلنَّاثِرُ عَلَى اَنْ اَزَالَ رَوْنَقَ ٱلْوَزْنِ وَطَلَاوَةَ ٱلنَّظْمِ لَاغَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَاعَيْبَ فِيهِ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْبَيْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ اِذَا اَتَى بِذٰلِكَ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْاَمْثَالُ ٱلسَّائِرَةُ فَاِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي ٱلشِّعْرِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلْاَوَّلِ وَٱلثَّالِثِ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ وَهُوَ اَنْ يَنْثُرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَنْظُومَ بِبَعْضِ اَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ ٱلْبَعْضِ بِاَلْفَاظٍ اُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ ٱلصَّنْعَةُ فِي ٱلْمُمَاثَلَةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ وَمُؤَاخَاةِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَاقِيَةِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُرْتَجَلَةِ فَاِنَّهُ اِذَا اَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْاِنْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَٱلْاِسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَٱلطَّرِيقُ ٱلْمَسْلُوكُ اِلَى هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَنْ تَاْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ اَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَاُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَاَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

وَحدَاء تَملأُ كُلَّ اُذنٍ حِكمَةً وَبَلاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَملأُ كُلَّ اُذنٍ حِكمَةً) مِنَ ٱلكَلامِ ٱلحَسَنِ وَهُوَ احسَنُ مَا فِي ٱلبَيْتِ فَاِذَا اَرَدتَ اَنْ تَنثُرَ هٰذَا ٱلمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِن ٱستِعمَالِ لَفظِهِ بِعَينِهِ لِاَنَّهُ فِي ٱلغَايَةِ ٱلقُصْوَى مِنَ ٱلفَصَاحَةِ وَٱلبَلَاغَةِ . فَعَلَيكَ اِنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ اصعَبُ مِثَالًا مِن نَثْرِ ٱلشِّعرِ بِغَيرِ لَفظِهِ لِاَنَّهُ مَسلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلحُسنِ وَٱلجُودَةِ . وَاَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعرِ بِغَيرِ لَفظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضطَرُّ اِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَد نَثَرتُ هٰذِهِ ٱلكَلِمَاتِ ٱلمُشَارَ اِلَيهَا وَاَتَيتُ بِهَا فِي جُملَةِ كِتَابٍ فَقُلتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَينَ ٱلنَّاسِ وَٱشتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمسِ وَٱلقَمَرِ . وَاِذَا عُرِفَ ٱلكَلَامُ صَارَتِ ٱلمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَاُمِنَ مِن سَرِقَتِهِ اِذ لَو سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيهِ ٱلوَسَامَةُ . وَمِن خَصَائِصِ سِفَاتِهِ اَنْ يَملَأَ كُلَّ اُذنٍ حِكمَةً . وَيَجعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجمَةً . وَاِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلاَفهَامِ قَالَتْ : اَهٰذِهِ بِنتُ فِكرَةٍ اَمْ بِنتُ كَرْمَةٍ . فَانظُرْ كَيفَ فَعَلتُ فِي هٰذَا ٱلمَوْضِعِ فَاِنِّي لَمَّا اَخَذتُ تِلكَ ٱلكَلِمَاتِ مِنَ ٱلبَيتِ ٱلشِّعرِيِّ ٱلتَزَمتُ بِاَنْ اُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثلُهَا اَوْ اَحسَنُ مِنهَا فَجِئتُ بِهٰذَا ٱلفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنبَغِي اَنْ يُفعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَاَمَّا ٱلقِسمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ اَعلَى مِنَ ٱلقِسمَينِ ٱلاَوَّلَينِ فَهُوَ اَنْ يُؤخَذَ ٱلمَعْنَى فَيُصَاغَ بِاَلفَاظٍ غَيرِ اَلفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعلَمُ مِقدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ وَإِلَّا احْسَنَ التَّصَرُّفَ وَاتْقَنَ التَّأْلِيفَ لِيَكُونَ اوْلَى بِذٰلِكَ الْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ الْاَوَّلِ . وَاعْلَمْ انَّ مِنْ اَبْيَاتِ الشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ الْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِالْمَسَائِلِ السَّيَّالَةِ فِي الْحِسَابِ الَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ اَجْوِبَةٍ . وَمِنَ الْاَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ الْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ الْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ انْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ اللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ النَّظِيرِ . . . وَإِذَا انْتَهَى بِنَا الْكَلَامُ اِلَى هٰا هُنَا فِي التَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ الشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنَتْبَعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا الْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ اَحَبَّ انْ يَكُونَ كَاتِبًا اَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ الدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِالْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ الشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ انْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ الْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى التَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي الْاِبْتِدَاءِ انْ يَنْثُرَ الشِّعْرَ بِاَلْفَاظِهِ اَوْ بِاَكْثَرِهَا فَاِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ اِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ارْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ الدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ الْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ الْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ الْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ انْ يُكْثِرَ الْادْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَاِذَا كَتَبَ كِتَابًا اَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ الْمَعَانِي فِي

اَثنَاءِ كَلَامِهِ وَجَاءَتْ اَلْفَاظُهُ مَغْسُولَةً وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَّةٌ حَتَّى تَكَادَ تَرْقُصُ رَقْصًا . وَهٰذَا شَيْءٌ خَبَرْتُهُ بِالتَّجْرِبَةِ وَلَا يُنْبِئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

تمّ بعونه تعالى

فهرس

المقالات

	وجه
توطئة	٣
البحث الاول في حد علم الادب	٣
البحث الثاني في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة	٤
البحث الثالث في موضوع علم الادب واركانهِ	٥
البحث الرابع في شرف الادب ومنافعهِ	٧
فصلٌ في قوى العقل العريزيَّة	٩
البحث الاول في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ	٩
البحث الثاني في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسب	١٠
البحث الثالث في العقل الغريزيّ وتعريفهِ	١١
البحث الرابع في العقل المكتسب	١٢
البحث الخامس في التصور والتمثل	١٦
البحث السادس الخيال والخيالي	١٧
البحث السابع في الحافظة	١٨
البحث الثامن في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان	٢٠
البحث التاسع في المطالعة	٢٤
البحث العاشر في الارتياض والممارسة	٢٥
البحث الحادي عشر في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين	٢٦
فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليه من المعارف	٢٨
البحث الاول في صفة الكاتب الظاهرة	٢٨
البحث الثاني في ادوات علم الكتابة	٢٩
البحث الثالث فيما يجب على الكاتب معرفتهُ	٣٠
الجزء الاول في علم الانشاء	٣٧
بحث في تعريف الانشاء	٣٧
الفصل الاول في الفصاحة	٣٩

	وجه
المبحث الاول في تحديد الفصاحة	٣٩
المبحث الثاني في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما	٣٩
المبحث الثالث في حقيقة الفصاحة	٤٢
المبحث الرابع في احكام الفصاحة وشروطها	٤٦
المبحث الخامس في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة	٥٢
المبحث السادس في فصاحة المفرد وفصاحة المركب	٥٤
الفصل الثاني في البلاغة	٥٩
المبحث الاول في الابانة عن حد البلاغة	٥٩
المبحث الثاني اقوال في تحديد البلاغة	٦١
المبحث الثالث في اوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات	٦٥
الفصل الثالث في المعاني	٦٨
المبحث الاول في حقيقة المعاني	٦٨
المبحث الثاني في صحة المعاني	٧٠
المبحث الثالث في انواع المعاني	٧٢
المبحث الرابع في الحكم على المعاني	٧٦

	وجه
المبحث الخامس في الترجيح بين المعاني	٧٩
المبحث السادس في الفصل والوصل	٨٢
المبحث السابع في تاكيد الكلام وقصره وتعزيزه بان واما	٨٧
المبحث الثامن في التقديم والتأخير	٩٠
المبحث التاسع في الحذف والاضمار	٩٦
المبحث العاشر في جوامع الكلام	٧٩
المبحث الحادي عشر في الانسجام	١٠٢
المبحث الثاني عشر في القول في النظم	١٠٣
الفصل الرابع في البيان	١٠٥
المبحث الاول في تحديد البيان على وجه الاجمال	١٠٥
المبحث الثاني في تعريف علم البيان	١٠٦
المبحث الثالث في الحقيقة والمجاز	١٠٨
المبحث الرابع في الاستعارة	١١٣
المبحث الخامس فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ	١١٧
المبحث السادس في اقسام الاستعارة	١١٧

	وجه
البحث السابع في جيد الاستعارة وردئها ومتوسطها	١٢٢
البحث الثامن في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب	١٢٥
البحث التاسع في مراعاة النظير	١٣١
البحث العاشر في المجاز المرسل	١٣٤
البحث الحادي عشر في القول عن الكناية	١٣٩
البحث الثاني عشر في التعريض	١٤٢
البحث الثالث عشر في ما ورد من الكنايات عن العرب	١٤٤
البحث الرابع عشر في المبالغة	١٤٩
البحث الخامس عشر في التكرير	١٥٦
البحث السادس عشر في حقيقة التشبيه وتحديده	١٦٤
البحث السابع عشر في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائده	١٦٦
البحث الثامن عشر في اقسام التشبيه	١٧٠
البحث التاسع عشر في التشابيه المستعملة عند العرب	١٢٦
البحث العشرون في معايب التشبيه	١٨١

	وجه
البحث الحادي والعشرون في المذهب الكلامي	١٨٤
الفصل الخامس في محاسن الانشاء ومعايبه	١٨٧
البحث الاول في تمييز الكلام جيده من رديئه ونادره من باردهِ	١٨٧
البحث الثاني في التنبيه على خطاء المعاني وصوابها	١٩٥
البحث الثالث في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعمالهُ في تأليفهِ	٢١٠
البحث الرابع في خواص الكلام الحرّ	٢١٣
البحث الخامس في تهذيب الكلام وتنقيحه	٢١٥
البحث السادس في شروط الكلام	٢١٩
البحث السابع في عيوب الكلام	٢٢٥
البحث الثامن في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني	٢٢٨
البحث التاسع في المعاظلة	٢٣٦
البحث العاشر في المنافرة بين الالفاظ في السبك	٢٤٣
الفصل السادس في وجوه	

	وجه
الكلام	٢٤٧
البحث الاول في وجوه البلاغة وطبقات الكلام	٢٤٧
البحث الثاني في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع	٢٥٤
البحث الثالث في السجع وانواعه	٢٥٨
البحث الرابع في اقسام السجع وضروبه	٢٦١
البحث الخامس في الايجاز	٢٦٥
البحث السادس في المساواة	٢٧٣
البحث السابع في الاطناب	٢٧٥
البحث الثامن في مواقع الاطناب	٢٧٩
الفصل السابع في البديع	٢٨٧
البحث الاول في حقيقة علم البديع	٢٨٧
البحث الثاني في ان البديع احد علوم الادب الستة	٢٨٩
البحث الثالث في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان	٢٩٠
البحث الرابع في اقسام البديع	٢٩٢
البحث الخامس في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيّات	٢٩٣
بديعية الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري	٢٩٥
البحث السادس في المطابقة	٣١٢
البحث السابع في حقيقة التجنيس	٣١٧
البحث الثامن في ذكر انواع التجنيس	٣٢٠
الفصل الثامن في فنون الانشاء	٣٢٦
البحث الاول في المثل وشرفه	٣٢٦
البحث الثاني في آداب المثل وشروطه	٣٢٩
البحث الثالث في آداب المحادثة والرواية	٣٣٢
البحث الرابع في حقيقة التاريخ وموضوعه	٣٣٤
البحث الخامس في شرف التاريخ	٣٣٦
البحث السادس في شروط التاريخ	٣٤١
البحث السابع في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات	٣٤٣
الفصل التاسع في حل الشعر والاحتذاء	٣٤٩
البحث الاول في حسن الاخذ	٣٤٩
البحث الثاني في قبح الاخذ	٣٦٣
البحث الثالث في حل الشعر	٣٦٧